

قطرات من ذاكرة الفكر



عبد أحمد عبد الكريم السحدي

الأوائل



Bibliotheca Alexandrina

89:

قطرات من ذاكرة الفكر

عبد أحمد عبد الكريم السعدي

قطرات من ذاكرة الفكر

قصص قصيرة

قطرات من ذاكرة الفكر

عبد أحمد عبد الكريم السعدي

=====

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى/ أيار - ٢٠٠٠م

رقم الموافقة: ٤٧٤٣٢/ بتاريخ: ٢٠٠٠/٣/٣٠

الإشراف الفني والإخراج: سعيد اسحاق

دار الشموس للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق: ٥٤٤٤٤٢٣ - ٦٦١٥٩٤٨

ص.ب: ٣٦٦١٣

الإهداء

كانت قطرات قليلة ثم انهمرت..
سحبت من الزلافة أحراثاً وجسرت مواقف
والهبت إحساساً..
ربما تسعد لحظة وربما تحزن غمراً
لكنها قطرات من مخزون الزلافة
عزيزة بكل ما فيها حبيبة بكل ما تحمل
وإلى حقبة العمر تلك
وإلى ندى التي سعت لتجسيدها واقعاً حياً
ومجموعة قصصية أقدم إهدائي

تَيَّارَاتُ مِنْ زَمَنِ غَايِرٍ

رَتَّبَتْ الأوراقَ وأسبَلَتْ عَيْنَهَا منهيةً عملَ ذلك
اليوم بعبارتها المشهورة والمألوفة لزوجها عادل: (الحمد
لله ها قد أنجزتُ ما كان عليّ من عمل الآن ولم يعد لي
غير أن أخلد للنوم إن شاء الله) كانت هنية سيدة تجاوزت
الأربعين من عمرها بقليل...

امراً ناضجةً مثقفةً عفيفةً وهي سيدة لها مكانتها
وحضورها في أي مجلس ومجتمع نسائي ونكوري...

شخصيتها قوية مهيبية الطلعة ممثلة القوام جميلة
إلى حد الملاحه صارمة في قراراتها ما تحدثت إلا كانت
سباقة في هذا المجال وإمامها بمعارف كثيرة واهتمامها
بعلم الأنساب والعلاقات الاجتماعية وصلات القرى
منحها سعة الاطلاع وحضور الذاكرة إضافة إلى
شخصيتها المسيطرة...

عملت مدرسة لسنوات طويلة ولا زالت تقوم بذلك حتى الآن حُباً بالمهنة وشغفاً بتقديم المعرفة لتلميذات أخرج إليهما من أي مُدرسة أخرى دخلت سلك التدريس عن غير رغبة واهتمام وقد تنكرت كلمتها وهي تشرع في الاستلقاء مخاطبة زوجها: (مدرسات هذا الزمان هُمهنَّ الأحاديث السطحية والعبث وعدم الالتزام بمواعيد الدرس والتأخر عن الوظيفة بما لا يفيد) إلى غير ذلك ثم أتبعته قولها: (مدرسات آخر زمان دخلن التعليم لأنه هذا هو الموجود وليس بالإمكان أكثر مما كان): فعقب زوجها عادل بقوله: (يعني هذا الحاضر) وعاجلته: (مدرسات لا مظهر ولا مخبر كذلك يا عزيزي).

وأنهت قولها وقد اطمأنت لما فعلته رغبة أن تغط في سبات عميق. ولكن زوجها أباً مروان الموظف الملتزم بكل دقائق حياته بنظامه الخاص وهو في دائرة التحقيقات أحب أن يسامرهما في تلك الساعة محدثاً إياها عن أمور عائلية تحتاج للمناقشة وبعض الیقظة حين قال لهما: (لا تنامي يا هنية... لا زال الوقت مبكراً ولم يحسن منتصف الليل بعد)، فقالت هنية: (دعني بربك يا عادل

لدي في الصباح أعمال كثيرة لا بد من إنجازها وخاصة "الصحوة بكير" صلاة الفجر وتحضير الإفطار وبعدها كالعادة ركوب السيارة معك للوصول إلى الدوام والعمل قبل نصف ساعة تقريباً ولا تنس توزيع الأولاد قبل نصف ساعة أخرى على مدارسهم الثانوية والمتوسطة والابتدائية.. فهي ست مدارس.. فم يا عزيزي واعذرنى..) وبدأت رحلتها مع النوم دون تردد..

هَزَّ أبو مروان رأسه متذمراً وقال: ما في فائدة.. الطبع غلب التطبع.. لو كان في مجلس نسائي في هذه الساعة عندها لتسديته وطلبت مني مساعدتها في تحضير بعض الأمور المترتبة لهذه الجلسة الشعرية والأحاديث الطرية والموضوعة والفساتين ولو طال بها الوقت بعد الثانية صباحاً ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله ومثل ما قالت هنية الزوجة الرضية...: عندي صباحاً ست مدارس واحدة لها واثنان لحليمة وسلوى ثم عزت وأمير ومروان.. أحسن شيء النوم وتوكلنا على الله..

ساد الصمت جَوَ المنزل وسبقهما جميع الأولاد بعد
كدّ الدراسة وجهد الدرس وأداء الواجبات وتناول العشاء..
لكن ابنه مروان من زوجته الأولى لازال يتلملـل
في فراشه كأنه في حلم وقد بلغ التاسعة عشرة وله شقيقته
من أمه هي حليلة التي تصغره بعام ونيف تقريباً... فتاة
ناضجة تمتلك الحسن والبهاء والثقافة والتفوق الدراسي،
فارعة الطول منسدلة الشعر كستنائية الأهداب في عينيها
ابتسامة الصبّا وضوء يشع ببهجة الحياة تُلهيكَ رقة
وتسحرك عذوبة.. صحت من نومها لتشرب كوباً من ماءٍ
واتجهت نحو المطبخ وبعد أن أفرغت محتوى كأسها في
فمها التي تناولته من الثلاجة ثم عرجت على كل أخوتها
واحداً واحداً تطمئن عليهم كأهم الحنون وتتأكد من راحة
كلٍ منهم ولم تتسّ أخاها الأكبر فقد نظرت إليه من الباب
فوجنته مستغرقاً في نومه.. فزايها القلق وتملكتها الراحة
لحرصها الشديد على أحوالهم وصحتهم دائماً ومستقبلهم
وحتى نومهم فقد عهدت هنية لها بهذه المهمة ولكنها بقيت
متيقظة يشغل بالها هم الدراسة والامتحانات والاستعداد
والتحضير مقدماً لشهادة الثانوية العامة عما قريب..

إضافة إلى حبها وشغفها بالأزياء والموضة
والمكياج، فهي بارعة بكل ذلك إلا أنها تفكر بأخيها
مروان أكثر من كل هذا فهو قد جاء من دمشق ومن
جامعته التي يدرس فيها بقسم علم الاجتماع إلى الخليج
عائداً في إجازته الفصلية ليقضيها عندهم وليجدد إقامته
في المملكة ولكن الظرف لم يُتَّخَ له العودة بالسرعة
الممكنة لكليته في نفس الموعد لضرورة تجديد جوازه ثم
إضافة إقامته ووضع التأشيرات التي لا بد منها وهي
وحدها مشكلة المشاكل لما فيها من تعقيدات وإجراءات..
وكثرة الاتصالات والهواتف تأزم الانفعالات ويزداد
الحرص لضيق الوقت وما أصعبها.. خاصة إجراءات
الحدود والموافقات التي تحتاج إلى صبر أيوب للازدحام
من ناحية والتعقيدات من ناحية أخرى...

ولا شك أن حديث أخيها لها عن رغبته في تغيير
دراسته إلى كلية الآداب وعلم النفس سيفقده سنة من عمره
بين الكليتين وإصراره على هذا الأمر وجزمه فيه لا يقبل
المناقشة وقد حاولت معه فلم تفلح وأصر على موقفه
وقناعته واسترسلت حليمة بشرودها بعد انقضاء أشهر

الدراسة والامتحانات وخلصت إلى عدم الرغبة في السفر
لو استطاعت ذلك لما فيه من متاعب ومشاكل فكم توقفت
أرتال السيارات في كل نقطة وهم بداخل سيارة والدها
أنشاء اجتياز الحدود وعدم السماح بالنزول أو التحرك أو
ترك الحافلات لفترات طويلة وفي كل نقطة لضرورة
الإجراءات خاصة إذا ما تقدمت حافلات أرتال السيارات
ونزل الكم الهائل من الركاب والأمتعة، فيا لها من ساعة
فالانتظار طويل وطويل جداً صيفاً وشتاء... ذلك وقت
نزولهم وقريباً يحين موعد إجازاتهم وتبدأ المشكلة وضيق
الصدر فالصيف محرق لاهب والطوابير كثيرة وأرتال
مسمرة لا تتقدم قيد أنملة في ذلك الزحام الهائل والصخب
المتعالي والتذمر الذي يتناثر من أفواه الواقفين لبطئ
الإجراءات وتقاعس المشتغلين وقلة المكيفات أو ربما
ندرتها وأحياناً عدم وجودها أصلاً في صالات الجوازات
مما يجعل المكان أشبه بحمام الساونا... فالشمس المحرقة
تبخر كل الأجواء فلا يرى الناظر أمامه إلا ضباباً كثيفاً...
تلك هي التي يسمونها في دول الخليج الرطوبة، حيث
يلتصق الثوب على الجسم ويتصبب العرق من الجبين

بقطرات مالحة تحرق الوجه عند نزولها وجريانها على
صفحته..

والحالة هذه كأنه يوم الحشر وساعة النفير... كلُّ
يحاول إنجاز معاملاته بما استطاع من سرعة ليتابع
إجراءات مثلها في حدودٍ أخرى وهنا تنقسم الأسرة إلى
مجموعات وفرق يأخذ كل واحد مجالاً واتجاهاً. فالواقفون
في الطوابير أمم كثيرة والذين يجرون هنا وهناك في
سرعة جنونية يربون على الأعداد الواقعة وجُلُّهم بلا
تركيز وعدم انتباه اللهم الذهاب والعودة والسعي ما بين
الأمكنة (مثل أم العروس فاضي مشغول) شيء عادي
ومألوف من كثرة المعاملات والأوراق والطلبات
والوقفات.

والأدهى من هذا كله الوصول لأمكنة التقشيش
فهناك الخطب الأكبر فالصراع على أشده والازدحام يبلغ
ذروته في انقفاع وصياح بِالْعَيْنِ (فترى الناس سكارى
وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) صدق الله العظيم

فهذه الآيات من حكمتها ومغزاها تتطابق وتتطبق على معظم المتعاقدين في رحلة عودتهم إلى أعمالهم بعد صراع مرير حتى ينطلق موكب السيارات مخترقاً الحدود النهائية والمسافات وكما قالوا (الشاطر بشطارته) (والماهر يلحق) ..

عندها صحت حليمة من ذهولها واستغراقها في رحلة السفر المعتاد التي أخذتها من لحظات اليقظة بعيداً في شروذ فوضوي أثاره ظرف أخيها الذي لا بد له من العودة لجامعته وكنيته وتعقيدات السفر ولذلك كان هذا الهم اليومي الذي يجول في أنحاء المنزل وبين أفراد الأسرة كالدوامة التي تبتلع كل من اقترب منها مع بدء كل إجازة وارتحال.

عانت حليمة من ذلك فازدادت متاعبها في هذه الظروف المخرجة خاصة حبها لأخيها الذي يسيطر عليها ويشتد تفكيرها ويهمها أمره ومستقبله وقد حالت دون عودته التعقيدات المملة مما أدى إلى عزوفه عن السفر مبنئاً حالماً تنتهي تلك الإجراءات وقد انتسب ثانياً لمعهد

الحاسوب (الكمبيوتر) بعدما يؤس من العودة المبكرة ففيه على الأقل الاستزادة بالمعلومات ولما استجدّ وتطويراً لتقافته في هذا الاتجاه وبينه وبين الحاسوب حب وعناق فإن تأخر عن جامعته وكليته فلا أقل من ربط نفسه بمعهد الكمبيوتر ليشغل وقته ويكتسب علماً ومهارة معاً إلى حين. وكم دخل دورات قبلاً وهو في مراحل دراسته المتوسطة والثانوية. وقد اقتنع بشعار زميل مصري الجنسية بما كان يقول (هذا الله وهذه حكمته).

فدول الخليج لا تسمح للطلاب الأجانب الناجحين بالثانوية العامة الدخول لجامعاتها ولا بد من البحث عن مقاعد لأي من هؤلاء في دولهم أو دول أخرى عربية أو غربية مما يشتت الشمل ويبعثره في أصقاع كثيرة من الدول.

فالمشكلة قائمة ولا بد لها من حل... إما استمرار الاغتراب أو العودة للوطن لجمع شمل الأسرة المبعثرة ما بين الدراسة والارتحال والحقيقة أن هذا الأمر قد شغل ذهن حليلة أكثر والآن بالذات لأنها على أبواب

الامتحانات ولولجها باب الجامعة عما قريب إن شاء الله
في الإجازة الصيفية أسوةً بأخيها مروان حتى تكون معه
فتحمل عنه عبء مهام المنزل وتجد فيه سنداً لها راعياً
أميناً وتلك كانت بعض مشاكلها التي لا تتفك تقتحم عليها
عزلتها وتتسلل إلى نومها في أحلامها الحياتية متتابعة في
معظم لياليها.

لكن الهم الأكبر ما لاحظته من أمها أي زوجة أبيها
وموقفها الذي ليس له حل أبداً... فقد عانت الكثير من
إرهاصات الضغط والقسوة واللهجة الآمرة (على فاضي
على مليون) مما عزز لديها شعور الوحدة والانعزالية
والتصدي أحياناً لرد الاعتبار خاصة تلك المرات التي
تقدم فيها أكثر من خاطب لها في العديد من المناسبات
مفسدة هنية أي اتفاقٍ معرقة كل الخطوات سافراً وبلا
إنذار..

هكذا... شَغَفَ بالعناد ورغبة في الاضطهاد وعدم
ممارسة الجميع لهذا الحق إلا عن طريقها هي وبأسلوبها
المتجبر وهيمنتها المتسلطة.

وإن كانت حليلة بعيدة كل البعد عن التفكير في
الخطبة والزواج لكنها أحوال... تلفت النظر وتثير
الشجون والتساؤلات مما ترى.

ولعل هذا الأمر فيه ما فيه من الخطورة المستقبلية
نحو التطور البعيد جداً والغريب جداً أيضاً.

والحقيقة أن هنية هي زوجة أبيها وأُمُّها بالتربية
والرعاية، وما أشد الاضطهاد وأقصى العناد وأصعب حياة
المدارة وأمرٌ شجونها وأبعدها عن حياة الدعة والرتابة
والسعادة والاستقرار.

إن حليلة لا تضم إلا الخير لكل أهلها ولم يتسنَّ
لتفكيرها لحظة واحدة أن تُبغضَ أيّاً من عائلتها وأهلها
فلماذا هذه القسوة وذلك الاضطهاد؟!

قالت ذلك حليلة في شيء من الاستغراب، ولكن
الحقيقة قدمت لها الردّ السريع على سؤالها حين تذكرت
أن زوجة أبيها هنية عانت من نفس المشكلة ومن تلك
الظروف التي تعيشها حليلة معها فقد كانت زوجة والد
هنية امرأة متسلطة شرسة الطبع فذاقت هنية منها مراً

للمعاناة مما عمق في داخلها هذا العداء المزمّن والروح
العدائية والعذوانية لأبناء زوجها مثل حليلة وأخيها
مروان وكالت هنية لزوجها ولأبنائه بنفس المكيال التي
شربت منه يوم كانت في بيت أبيها وتصرف هنية مع
زوجها عادل لا يتفق مع الأريحية المطلقة وحسن
المعاملة.

أذن للفجر وصحا أبو مروان وتبعته هنية للوضوء
والصلاة فشاهدها حليلة وهي في شرودها المعهود
فزمجرت هنية صاعقة غاضبة في وجه حليلة: (ماذا
تفعلين حتى الآن يا حليلة؟) ثم ما الذي أيقظك لهذه
الساعة؟ فانتبهت الصبية من شرودها مرتبكة فزعة
وقالت لا شيء. لا شيء الآن صحت... لا عليك يا أمّاه
واغورقت عيناها بالدموع فتقاطرت بحرقّة وأسى
متأوهة حزينة.

فتقدم منها والدها مهنئاً روعها حانياً عليها مُربّتهاً
على كتفها وضمها إلى صدره مواسياً وهو يقول أحسبك

تغضبين منها... لا تلقي بالاً لما تقول هي، وأنت تعرفين
مدى حبي وإعزازي لك يا حبيبة...

لكن الأسى لم يفارق جوانحها وهي تتمتم يا الله...
(الناس ربما تعيش الاغتراب مرة واحدة أحياناً
ولكنني أعيشه ثلاثاً. اللجوء، وتشتتُ الشمل والبعاد...،
وغربة البيت الحاني وحضن الأم).

لا تفعل أرجوك

شحذ سكينه واندفع غاضباً حائقاً كثورٍ طعن في ظهره عدة طعنات من مصارعيه فازداد هيجاناً وعنفاً ويدا استياؤه في ملامحه البارزة وتقاسيم وجهه التي رسمت على محياة أخاديد متوازية من غير تناسق وانتظام وكان لابد أن يغرز سكينه في ابنته حسنية التي أحبت ابن الجيران نعيم الناعم المتهتك رقيق العود لين الحركات طري الكلمات يتثنى في مشيته كفتاة تعرض مفاتها لمن يتقدم.. وهما في عمر المراهقة ما بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من العمر.

وكان كل من حسنية ونعيم قد تأخرا دراسياً ورسباً في الشهادة المتوسطة لأكثر من سنة وعلاقاتهما الصيبانية واللقاءات في الحداثق العامة والمحادثات من على شرفات المنازل كثيرة ولكن والدها جابر ما كان ليلاحظ مثل هذه الأمور في فترات النهار مطلقاً فعمله كسائق تاكسي كان يستغرق منه يومه كله وجزءاً من ليله ولا يعود إلا منهكاً

مكدوداً (ومن المحتمل أن يأكل لقمة بعد أن يغسل يديه
ويا الله على النوم) كما يقولون ليستقبل يوماً جديداً بهمةٍ
أخرى وهكذا تبدأ عجلة النهار دورتها ثانية في رتابة
معروفة لا تغيير فيها غير ملامح الوجوه والأشخاص
الجديدة التي تركب معه في مرات أخرى ثانية وهكذا
تستمر حلقة عمره في هذا السياق المتواصل كعجلة رُكِّبَتْ
على آلة معمل وليس لها غير الدوران والإنتاج... وكان
لا بد لوالد حسنية جابر أن يدأب كثيراً جداً لعائلته الكبيرة
المؤلفة من أحد عشر فرداً خاصة بعد أن امتلك سيارة
الأجرة التي يركبها ويعمل عليها مغرمًا بها عاشقاً لها
فحياته المديدة مع أسرته ما كانت بفقره المدقع وأسرته
الكبيرة لتسمح له أن يقتني سيارة باسمه شخصياً.. وقد
كان يعمل سائقاً عند أصحاب السيارات وهذا استغرق
معظم سنواته العريضة وفي منزله المتواضع مع العديد
من العائلات في منطقة البحصبة القديمة قبل التحديث حيث
كل عائلة تسكن غرفة واحدة من عنبر يتسع لعشرين
عائلة معاً أو يزيد. وجميعهم يشتركون في دورات مياه
واحدة وكذلك كان المطبخ المهترئ المتعفن الذي نسيته

الزمن تتسلل على جدرانهِ خيطان العشبشون الأسود..
وتنتلى من سقفه نُسجُ العنكبوت المُعَمَّرِ في أشكالٍ مَقْرَزَةٍ
والحشرات تسرح في أرض المطبخ كيفما شاعت دون
رقيب أو حسيب.. وجابر أبو أدهم.

وهاهو قد سكن الآن شقّةً وامتطى سيارة يملكها
وتحسن حاله ولكن حال الأسرة الكبيرة الذي لا يرحم لا
زال يلاحقه ليل نهار بالطلبات التي تَرِفُ عليه كالمطر
المنهمر المهطال.. فمن أين له أكثر وقد فعل فوق ما
يستطيع وهاهو يعاني القلق منهك مكدود لا يكل ولا
يمل.. ولولا أخوه فريد الذي مات منذ سنوات وهو يعاني
الذبحة الصدرية ولم يكن له أبناء ذكور غير زوجته
 وخمس بنات مع أهمهم وأموال كثيرة بالملايين... لما
استطاع جابر شراء شقّة والظهور فوق السطح بعيداً عن
غرفة العنبر فقد تقاسم جابر مع أخوته الستة وأخواته
البنات الثلاث وبنات المرحوم وزوجته الميراث فكان أن
تحصل على سكن في منطقة ركن الدين الأفضل والأكثر
تنظيماً وراحة من غرفته المظلمة التي عاش بها سنواتٍ

طويلة... وقد استأجر أخوه فريد له هذه الشقة قبل وفاته بأشهر لشعوره بحالة أخيه المزرية فانتشله من مكانه المتردي وأسرته والآن وقد دامت معاملات حصر الإرث عدة سنوات كان لا بد أن يشتري الشقة التي يقطنها بربع الثمن فهو المستأجر الساكن ولن يخليها إلا بحالتين... إما أن يأخذ (خلو رجل) أو أن يشتريها بثمان زهيد بخسٍ دون قيمتها الحقيقية.

وصاحب الشقة لا يستطيع إخلاءه لأنه يتسلم الأجرة كاملة من المصرف كل أول شهر وذلك هو المبلغ الذي أودعه فريد الأخ المتوفى قبل ارتحاله إلى عالم الآخرة ليكون أجراً مدفوعاً لجابر وأسرته في شقتهم المؤجرة باسمهم..

فما كان من صاحب الشقة إلا أن استأجر ربه وأخذ ما اتفقَ عليه وصار جابر من أصحاب الأملك في شقةٍ بالدور الرابع مضافاً لها السطح الذي استأنس فيه جابر للجلوس به ساعة الصفاء من يوم الجمعة مخططاً فوقه

لبناء شقة أخرى عليه لابنه الأكبر أدهم فيما بعد عندما
يزوجه بابنة الحلال إن شاء الله.

ولم تكن زوجة جابر أم العيال رتيبة لترضى من
زوجها جابر قسمته تلك وهي امتلاك الشقة وتسجيلها
باسمه وأن يتصرف بنصيبه بالميراث دون أن يكون لها
حصّة من نصيب الأسد وهي الزوجة التي تحب أن تمتلك
كغيرها شيئاً من متع الحياة فاشتريت عليه أن يقطع
مبلغاً لها لشراء شيء من الحلي والذهب ما يتناسب مع
شخصيتها وحيثياتها المجتمعية واللقاءات النسائية في قابل
الأيام... فانصاع أبو أدهم مضطراً مرغماً لأمرها محققاً
لها ما طلبت دون تردد فهو الذي يعشقها ويهيم بها فليفتنى
الجميع أبناءً وبناتاً وتكون هي راضية أولاً وأخيراً وقد
خُطبت لابن عمها (عزّام) قديماً عندما انخرط في سلك
البوليس في الجيش البريطاني من قبيل الوالدين وقراءة
الفاتحة وهو عن ذلك بعيد بعد الشمس عن الأرض مما لم
يفسح مجالاً لزوجهما فحظي بها جابر وأصبحت رتيبة
زوجته فيما بعد ثم وهل تحقق هذا الحلم...؟ وما كان

ليصدق جابر ذلك لولا أن صارت حقيقة يتلمسها كل ليلة قبل النوم منذ عشرات السنين وهو يفعل ذلك متحققاً من وجودها لديه ومعه وكم لاحظ أبنائه من حركاته تلك التي يداعب فيها زوجته ما نَمَى غرائزهم المكبوتة وتفاعلت مع الأيام متجسدة في تصرفاتهم المستقبلية. فجابر كان شاباً أشقر جميلاً يتميز عن أخوته بلونه المتوهج فهو الوحيد الذي يتسم بما أنعم الله عليه دون أخوته السَّمرِ شُبَّاباً وصبايا..

تعلقت به ممرضة بريطانية في إحدى المستشفيات التي تردد عليها وأصبحت قصته معلنةً بين الجميع من الأهل والمعارف ولكنه لم يأبه بذلك حتى كان أن تزوج من رتيبة بعد سنوات... (حُبٌّ مشبوبٌ بغرامٍ عاصفٍ) ولولا أن رتيبة لها من الحسن والجمال والدلال والغنج والأنوثة المفرطة والطول الذي يماثل طولها والإطلاقة المشتهاة وقوة الشخصية ما غلب عليه النسيان واكتفى برتيبة زوجة وحبيبة... وهاهو الآن جابر يمتلك زوجة

وبيتاً وسيارة ، ومن الناس من تهبط عليهم الثروة فجأة
ويتغير حالهم دون سابق إنذار (وسبحان العاطي)

فقد تحصل على ثمن الشقة من ميراث أخيه فريد
المتوفى وامتك سيارة أجرة عن طريق أخيه الثاني نزار
(فمصائب قوم عند قوم فوائد) كان نزار رجل أعمال
معروفاً انطلق بسرعة البرق نحو الثروة محققاً نجاحاً
باهراً حين أسعفته الظروف وخدمته الأيام والحظوظ وكما
قيل عنه (حظه بين رجله مثل الدجاج)، فقد اشترى نزار
لأبي أدهم تلك السيارة التي يعتليها الآن متباهياً هائناً بها
وبامتلاكها، وجابر ينظر إلى السيارة ولا يصدق نفسه،
وهامو يتأملها ملياً وكثيراً ما وقف أمامها ليمر بيديه فوق
حديدها مباركاً لنفسه هدية أخيه الغالية، يجهد بتطيفها،
والعناية بها ويفنى طوال نهاره بالعمل عليها حتى يفنى
بطلبات الزوجة والأولاد جميعاً، والمسؤوليات الحياتية لا
ترحم ولا تنتهي أبداً.

وقد عزَّ عليه أن يمتلك البيت والسيارة فقط ولا
يكون لديه المال الكافي حتى ينهل من متع الحياة ويستمتع

بما لذ وطاب فهو جشع لا يقنع بالقليل ولا بالكثير
وصحيح أن المسؤوليات كثيرة أيضاً متشعبة وليس لها
آخر ولكنه ما ذكر ربه بالحمد على ما أنعم عليه يوماً،
فهو جحود متلاف ينظر إلى أخيه رجل الأعمال بعين
الحسد والبغضاء لوفرة ما لديه وقلة ذات يده هو.... ومع
أن نزار أخاه الأصغر لا يترك فرصة تحين حتى يستغلها
ليقتحم لجابر وأسرته ما تجود به نفسه عن طيب خاطر
لكن أبا أدهم لا يقنعه الفتات فهو ينظر إلى أن يكون ذات
يوم من أصحاب الملايين وكم غالى بحديثه المتبجح
وكلماته السوقية بالسبب المفرط لكل أهله خاصة لأخيه
نزار الذي لم يغدق عليه كل ماله ليرضى عنه. لكن جابر
لديه ثروة كبيرة هي بناته التي لا تعادلها ثروة فلديه منهن
ست بنات... كل واحدة هي بدر يتلألاً وقد شبت الفتيات
عن الطوق وظهرن بأجمل صورة، حوريات يتجلين في
خدرهن ووالدهن وأمهن همهما الوحيد أن يتزوجن
بالشخصيات المرموقة كالمهندس والمدرس والطبيب
وأصحاب الثروات حتى يتفخرا في المستقبل بالشهادات
العالية والشخصيات المميزة ويجني كل منهما بعد ذلك

عن طريقهن ما يتمنى بعد هذا الصبر القاتل والحياة
المعذبة فتكون الحظوة والثروة آنذاك.

ولكن الأحلام لا تأتي دائماً كلها سعيدة فقد خُطِبتُ
ثلاث بنات لأبناء أخت جابر كلهم مهندسون إلا البنت
الرابعة الكبرى السمراء فقد أحببت ابن الجبران واتفقا على
الزواج ولكنه موظف بمستوى الثانوية العامة مما لا يتيح
له فرصة الغنى وامتلاك الثروات..

فقد عزَّ على جابر أن تكون ابنته الكبيرة سمراء
اللون كأفراد أسرته الأخت والأخ وأن يكون حظها من
الجمال أقل من مثيلاتها. وهذا الأمر لا يُيسِّرُ له ما يتمنى
فيما بعد، لقد عَنَّبَهُ هذا المصير على أنه قال: (هي سمراء
وخاطبها بسيط وهذا بذاك قِدْرَةٌ ولاقت غطاها) وكم جنى
من الوليات والمشاكل جابر من جراء رحلة الحب تلك
بين الاثنين ما أتعبه فالحب لا يمنح المال ولا يجني منه
إلا الوبال. هكذا تراعت الأمور بعيني جابر دائماً وكانت
فلسفته في الحياة (القرش أولاً وليأت بعده الطوفان) وربما
كانت هذه المقولة التي يتخذها شعاره الحياتي مرجعها

لعذاباته التي عاشها وظروفه ومعاناته مع أسرته ثم لقلّة ذات اليد ثانياً... وجشع زوجته رتيبة وحبها لذاتها وهيمنتها وتعلقها بالمظاهر المزيفة الخداعة، فهي وقد بلغت من العمر ما فوق الخمسين لا زالت المرأة المتصابية التي لا هم لها غير الاستعراض والمكياج وزيارة الصالونات مؤخراً بعد أن طفت على السطح وأخذت من الفرص بنصيب وحتى لو بقي زوجها الحراث الكادح تحت نيرها الليلي وشفائه النهاري المتواصل ثالثاً. لكن الحقيقة أن الكثيرين من البشر ممن يعانون ويتألمون ويجاهدون في حياتهم ما يغنيهم عن مثل حكمة جابر وجبروت رتيبة ويعوضهم بالقناعة والرضى أملاً بيوم أفضل وحياة أجمل حين يقولون (الشرف والكرامة أولاً ثم المال والغنى ثانياً)...

وهاهو جابر قد لمح ابنته حسنية الفتاة اللعوب العنيدة الشرسة التي لا تستجيب لأمر ولا تقلح في شيء. رسبت في الشهادة المتوسطة عدة مرات وهاهي الآن تعبر من أمامه على الرصيف الآخر بصحبة ذلك الغلام

المخنت (نعيم الناعم) كما يسميه هو... كان ذلك عندما تجاوز جابر بسيارته إشارة المرور الخضراء بعد أن أضاعت له وهو يصطحب العديد من الركاب فنادها بصوته الأجش الخشن (يا حسنية... يا حسنية) فلم يفلح نداؤه ولم تستجب لصوته الجمهوري رغم أنها نظرت بطرف عينها ناحيته وقد عرفته وتأكدت منه حقاً إنه والدها فأسرعت الخطى مختفية عن الأنظار في زحام المارة ولم يعد بإمكانه ترك السيارة والركاب والجري وراءها لِيَتَّبِعَهَا بصاعقة تقضي عليها فما كان منه إلا كظم غيظه إلى حين وأخمد غضبه الذي تفاعل في جميع جسمه وكيانه من تصرفاتها وعدم انتباهها وتجاهلها له فقد شعر بما لا يقبل الشك بأنها سمعت صيحاته ولم تستجب فاضطر لإنهاء سفرته تلك بركابه إلى محطاتهم الأخيرة وقفل عائداً منفعلاً يثور ويزيد حتى دخل بيته وتوجه من فوره نحو المطبخ ممسكاً سكيناً كبيرة ليحزّ بها رأس ابنته الملعونة بعد أن شحذها بسكين آخر وهو يصيح (أين حسنية؟! أين حسنية).

وتصدرت زوجته رتيبة ساحة الصالون وهي تقول
 بخبث وبصوتها المُنْجَج، ما الذي عاد بك مبكراً يا
 حبيبي؟! هذا اليوم... لاشك أنك تشنقُ إليّ).

ثار أكثر أبو أدهم وعلا صوته وهو يلوح بيده التي
 تحمل السكينة الكبيرة مردداً: (أين حسنية يا مَرَّة؟)... لقد
 عَقَرْتُ رأسي بالتراب وداست كرامتي وقد شاهدتها تمشي
 مع ذلك الغلام العاهر المخنث نعيم الناعم) وردَّ ثانية....
 أين هي؟!.

حضنته رتيبة زوجته بيديها وتلقفته بصدرها الدافئ
 حتى تنهي الكارثة وهي تعلم أن لبنتها في الغرفة
 المجاورة وقد أفلت عليها الباب حتى ترى في ذلك أمراً
 وتحل المشكلة... لكن أبا أدهم وجد أن الفرصة أصبحت
 مواتية وحان القطاف العاجل. فها هي أمامه وقد دقت
 ساعتها وحسابها فلا بد من ذلك وانفج نحوها بغضبه
 العارم مبعداً زوجته رتيبة عن طريقه وقد تشبثت به
 فانخرست سكينه في صدرها ووقعت أرضاً تسبح بدمائها
 الغزيرة.

فذهل جابر من هذا المشهد ولمّا فعل، وقد تشنّجَ
قلبه وتجمدت يداه وتحجرت عيناه وانهار فوقها مفارقاً
الحياة نبيح الجنون في لحظاتٍ فائتةٍ وكأن زوجته تقول
له: لا تفعل أرجوك.

الديك الرومي

جَلَسَا أمام المذبح وهما يتحادثان مستمعين للأناشيد
الوطنية الحماسية المجلجلة في فضاء سماء قرية كوك
نَبَّة التابعة لعين العرب من أعمال حلب الشهباء بعد
انتهاء الحرب والمعارك التي خاضها جيشنا العربي
السوري الباسل إثر الانتصارات في حرب تشرين
التحريرية من عام /١٩٧٣/ المظفرة نَحْرًا للعدوان
الإسرائيلي واسترداداً للأراضي التي وقعت تحت
الاحتلال بعد حرب حزيران عام /١٩٦٧/ في الخامس
منه وقد استفاق المارد العربي الأبي ونهض مهيباً عظيماً
شامخاً مجتأحاً الحصون والمعازل مخترقاً المساحات
الواسعة أمامه وقد أبلى البلاء الحسن وكان نضالاً
مشرفاً... فرح الشعب الوفي به وابتهجت الدنيا وسعد
أهالي القرية الموجودة خلف نهر الفرات المسماة كوك
نَبَّة بمسافة تبعد نحو ثلاثمائة كيلو مترٍ وارتفعت
الزغاريد فهو عيد النصر والبطولات العظيمة فقد بدأتها
مصر بمعركتها المسماة بمعركة العبور على الجبهة

الجنوبية ثم دخلتها سورية وكان الانتصار والغلبة
للأبطال الميامين وما أحلاها فهي فرحة النصر وعيد
الفطر وهنا تهيأ كل من الزملاء الموجودين في هذه
القرية والقرية المجاورة استعداداً للرحيل بعد هذا
الصباح المشرق بالفرحة والعزة والشموخ وقد حان وقت
انتهاء العمل المدرسي وبدء إجازة عيد الفطر. عندها
اجتمع الزملاء وقرروا شراء بعض الأشياء من القرية
هدية للأهل والأحباب كالبيض البلدي والمسنن العربي
والدجاج الرومي. عند عودتهم لقضاء الإجازة فيما بين
أهلهم وتوجهوا لأهالي القرية الذين يبيعون هذه الأشياء
والدواجن ما تيسر لهم من رزق الله ميممين الوجهة نحو
حلب الشهباء المدينة التاهضة الواسعة التي تقبع على
رابية مُرتَفَعَةٍ في شمال سورية الأبية إنها مدينة سيف
الدولة الحمداني عريقة التاريخ والأثر والحضارة عبر
الأزمان والعصور.. وابتاع كل من المعلمين منير
القاضي وفايز الأسود وفتحي الحاج خليل ما رغبوا
بشرائه وبدأت الرحلة من قرية كوك نَبَّةَ التي يسكن فيها
فتحي إلى قرية زميليه وكانا عنده ضيفين في تلك الساعة
فلا بد من المسير أولاً نحو القرية الثانية لوجود سيارة

الأجرة الجيب التي يقودها السائق مرعي في قرية مركز
المخفر والنوم فيها عند الزملاء حتى الصباح من اليوم
التالي فهو لا يمضي إلا باكراً جداً والمسافة ما بين
القريتين تحتاج إلى نصف ساعة سيراً على الأقدام على
أقل تقدير وربما تتجاوز ثلثي الساعة أحياناً والوقت لا
يسمح بالسفر حتى يعود مرعي من سفرته ولا يكون ذلك
إلا في الغد من يوم جديد. لذلك لا مانع من المشي
بالأمتعة والحاجيات وقد ودّع فتحي الحاج خليل أهل
القرية بصحبة زملائه متوجهين إلى قرية مركز المخفر
حتى يوم غد وانطلقوا وهم يتشاورون بالأحاديث حول
مهمة العلم الوحيد في كل قرية من تلك المناطق ودوره
في تنمية القدرات والتربية والإعداد والتعليم لجميع
فصول الدراسة الذين يلتحقون بمدارسهم بعد التعيين في
تلك المناطق النائية البعيدة ولذلك تكون مهمة المعلم
الوحيد في المدرسة لعدد من الصفوف في كل مرحلة
صعبة جداً ولا بد لها من مهارة وحسن تدبير حتى يقدم
الفائدة للجميع بتقسيم العمل ما بين عدة فئات الأول
والثاني، والثالث والرابع، والخامس والسادس، وتلك
كانت مهمة المعلم فتحي الحاج خليل تقريباً، لأنه كان

وحيداً في قريته ريثما ترسل مديرية حلب له معلماً آخر
أو معلمين يقومان معه بعبء العمل لتزداد المنفعة
ويستفيد التلاميذ. ثم توجه المعلمون بعد وصولهم إلى
قرية مركز المخفر للمنطقة إلى بيت مرعي ليتركوا له
خبزاً عند أخيه الأصغر برغبتهم وعزمهم على السفر
معه صباح اليوم التالي بعدها قضوا يومهم في سكن
المُعَلِّمِينَ الآخرين حتى الغد. تساقطت الأمطار بغزارة
حول بيوت القرية التي تظهر للرائي من بعيد كأنها
صوامع غلال وحبوب لأنها مبنية على شكل قباب طينية
متلاصقة بجانب بعضها نضيء ليلها بالسراج ونهارها
بالشمس الساطعة، أما في الشتاء فالظلمة تكتسح النهار
أيضاً ولا يرى في البيوت إلا أشباحاً تتحرك داخلها
لضعف الإمكانات وقلة الوقود من حطب ونفط أحياناً،
وَلَمَّشَقَّةٌ في وصوله إليهم أن الطرقات كانت كلها موحلة
ضيقة تنسرب بين القباب كحيات تتلوى فيما بينها
متعرجة ممهدة لكثرة ما داستها رجل الإنسان ومشيت
عليها العربات التي تجرها الحيوانات البسيطة وهي
تحاشر الوقوع في الحفر التي توزعت في كثير من
أرجائها بجانب كل طريق فاغرة فاهماً موحشة خاصة في

الليل. حُفِرَتْ منذ زمن أبيارٍ واحدٍ بعد الآخر للحصول على الماء يدوياً حتى جفت وأقفرَتْ فهجرت وتناثرت وقد توجس المعلم فتحي أول الأمر خيفة منها عندما جاء القرية معلماً جديداً وحيداً وكان يخشى خاصة في الليل عند تجوله من مكان لآخر من الوقوع فيها وهو ينظر باستغراب لأصحابه من أهل القرية كيف يمرون بسرعة من جانبها ولا يقعون فيها فتساعل وسأل أحدهم فأجابه: إنها عادة وقد تعودنا على الظلام وحفظنا أمكنتها فلا شيء يهم ولا نلق بالآ لها فاستغرب فتحي أكثر، كيف لا يلقي بالآ لها وهي تمتلئ بالأفاعي والثعابين وقد سمع عن الكثيرين الذين عضتْهم الحيات وليس من طيب، أو مستوصف، أو حتى صيدلية، أو ممرض ليسعفهم في تلك اللحظات العصبية فازدانت هواجسه ولم يقتنع بما قيل، وصاحبه الذي يحدثه أورد ذهب أسنانه من كثرة ما امتصَّ من سمومها ممن يتعرضون لعض الثعابين وأمثالها، فالعلاج الوحيد هو هذه الطريقة البدائية البسيطة في ذلك المكان النائي البعيد عن كل طبابة وعلاج، ولا يوجد غيرها أبداً، فسموم الأفاعي مع الأيام تترك أثراً كبيراً في فم من ينقذ الآخرين من عضها وتؤثر على

الأسنان فتتساقط متآكلة من جذورها متهاوية... طلع صباح اليوم التالي وقد صبحا الجو، وبان النهار، وانعقد فوق القرية قوس قزح، حتى السماء متلألأاً بألوانه الزاهية البنفسجية والصفراء والزرقاء والبيضاء عندما لاحت الشمس من وراء الأفق ترسل أشعتها الواهنة الباهتة في جوها الشتوي من شهر تشرين الأول، وقد جاء الشتاء هذا العام مبكراً جداً يبشر بموسم خير وحصاد كبيرين، والفلاحون يسعون في الأرض ويعدها ينتظرون رحمة الله عليها حتى تسعفهم السماء بمطرها فهي فرحتهم الثالثة التي أنقذتهم من القنوط بعد هطول الأمطار. إنهم ينتظرونها بفارغ الصبر ويعقدون عليها الآمال العريضة فالزواج ينتظر هذا الموسم والبناء والسفر وشراء الحاجيات وكل ما يتمناه الفلاح وما يسعى إليه معقود عليه الأمل وعلى مطر الله وخبره فهو بداية الفرج خاصة إذا جاء مبكراً، فالسعادة غامرة والمشاكل تنتظر الحل قريباً. ها هي سيارة ركاب الجيب واقفة أمام مركز المخفر تتأهب للانطلاق يعتليها السائق مرعي... حرك مفتاح عجلة القيادة فدار محركها بخانه الذي يبين في الشتاء مقطراً فوق الأرض، بعض النقط عند الدوران

والإحماء استعداداً للانطلاق وقد ترك مرعي لبوق
سيارته الزعيق مراتٍ عدةٍ حتى ينبه الركاب ومنهم
المعلمين... بدا مرعي ضخّم الجسم عريض المنكبين
جهم القامة واسع العينين أجش الصوت قوي العزيمة،
يمسك بعجلة القيادة، وكأنه يقود دبابة أو يمسك بمدفع فقد
خدم في الجيش مجنّداً بسلاح المدفعية.. ماهر متمرس
عنيد صلب لا تتبّيه العقبات ولا يحفل بالتحديات.

أطلق صوت بوق سيارته الحبيب ثانية ليسرع كل
من تأخر عن الركب قبل أن يتركهم لليوم التالي فتراكض
المسافرون وجاء المعلمون هرولةً مسرعين وبأيديهم
أحمالهم وعلى أكتافهم، فالحمولة هي الركاب والدواجن
والأمتعة وكل شيء يمكن أن ينتقل بسيارة الجيب فهي
وسيلة النقل... اللهم إلا الدراجات النارية التي تأتي القرية
أحياناً بطلب خاص من عين العرب لتوصل واحداً أو
اثنين بأجرٍ غالٍ ولا شيء غير ذلك أبداً... انتصب فوق
المركز علم سورية الوطن الغالي مرفرفاً فوق سارية
المخفر يخفق متموجاً كلما هبت عليه ريح ناعمة طرية
مشبعة بالندى ورذاذ المطر المتراسل وطيور القرية
تحيط به وقد توزعت فوق الجدران وعلى القباب وأكوام

القش وتلال التراب وكوَّاتُ الحمام العالية... وكأنَّها حراس النهار تأخذ دورها بعد مهمة رجال المخفر الليلية والحفاظ على الأمن والنظام وهم يتجولون بين القرى بسياراتهم العسكرية. تحرك مرعي أخيراً بعد أن سدَّ كل منفذٍ في سيارته ومكانٍ وعن يمينه وعن شماله بالركاب والأمتعة والطيور وتراكب الناس فوق بعضهم متلاصقين بالكاد يجلسون، وجهتهم عين العرب في رحلة شاقة وعِرةِ الجبال الجرداء القاحلة إلا من مزارع القطن في مناطق متفرقة ومساكب البساتين التي بدأت حديثاً بالظهور في تلك القرى القصية شمالاً والتي تتاخم الحدود التركية من جهتها الجنوبية الشرقية وقد نبَّت فيها الحياة بعد جهود الدولة المتواصلة للحث على الزراعة القطنية والمناطق الرعوية والحبوب بأنواعها من قمح وشعير وما إلى ذلك وبعض الخضروات لتوفير الاكتفاء الذاتي والتصدير إن أمكنهم من محصول القطن، وتلبية الاستهلاك لحاجات أهل القرى، ومع دعم اتحاد الفلاحين السخي الذي يقدم العلف والسماد والإرشاد مما ساعد ذلك على التوطين والاستقرار، وعدم الترحال واستصلاح الأراضي الحبيبة والاستفادة من المساحات الكبيرة

المترامية الأطراف في تلال ومهاد حتى أصبحت تسُرُّ الناظر وتبهج النفس وتبشر بالغد السعيد الساطع، فالقمح والشعير والحبوب بأنواعها والقطن تلك هي الغلال للرئيسة والأساسية في معظم الأراضي المستصلحة للفلاحين، مما طور المنطقة وجعلها رافداً للثروة القومية خاصة من القطن الذي يصدر بنوعية ممتازة جداً للخارج ثم الحبوب التي تعوض الاحتياج بما يسدُّ النقص وبلادنا التي كانت تصدر القمح إلى روما والعالم. ها هي الآن بفضل جهود الدولة بلغت شأواً جديداً ومكانة مرموقة وعادت تنصدر ساحتها المتقدمة في أهمية الغذاء العالمي لبني الإنسان، وأصبحت سورية من الدول المهمة في هذا السبق تلبي حاجة الشعب والوطن وتقدم الخير بالحصول على العملات الصعبة للدول المحتاجة من فائضها المتوفر في ميزانها التجاري المتوازن، وقد أمَّنَ هذا التوازن القطع الأجنبي وزاد حصيلة الصادرات وقلل من الواردات والاعتماد على الدول المصدرة إليها بفارق كبير فتوجهت الجهود والمسعاي للتخطيط والبناء والمشاريع العملاقة للفاعلة في أرجاء الوطن.

تلك هي الجهود التي أثمرت متواكبة في كل

الجهات وما هي حقول القمح المعدة للبذار تلوّح في امتداد الرحلة حمراء بتربة غنية بكر قد شقها المحراث الحديث وأعمل فيها الفلاح جهده فصارت حقولاً متوازية كصفحات كتاب مفتوح نقول للناظرين تلك هي الجهود الحقيقية والاهتمام من رجال الدولة أمامكم تشير إلى الإنجازات بكل مجالاتها. رافقت الطريق ما بين كوك تبة وقرية مركز المخفر مسافات كبيرة أخرى أيضاً تتميز عن غيرها من كل القرى بغابات أشجار السرو والهور التي صارت موئلاً للطيور بكل أنواعها وملجأ للعصافير والكثاري في بقعة خضراء تضم الطيور والحمام. تغذية مضخات الماء من الآبار الارتوازية التي حفرت حديثاً للسقاية والعناية بالأشجار والزراعة مما جلب إليها الصيادين من لبنان في هذا الموسم من السنة لاصطيادها ومطاردة القطا والحباري المهاجرة من شمال تركيا وغيرها نحو الجنوب عابرة تلك المنطقة بمجموعاتها الهائلة ورحلاتها المعتادة نحو الدفء في الجزيرة العربية ثم العودة شمالاً في الصيف ثانية إلى مكانها الأصلي... أثمرت الجهود وسعد المواطن ولا زال الطريق طويلاً نحو الإنجازات المتعاقبة المتواصلة وليس بالمستطاع

إنجاز كل شيء معاً في وقت واحد فالخطوات الجريئة
والخطط الخمسية تأتي على مراحل. وما هي بدأت تشق
طريقها بهذه الجبال الصعبة الوعرة.. وتغير ملامحها
الجرداء القفراء إلى جنان تموج بالذهب الأبيض من
القطن والذهب الأصفر من القمح إضافة إلى الذهب
الأسود وما بين هذا وذاك يطول الطريق، ويخترق
السائق مرعي بسيارته الجبارة كل تلك التلال والمنحنيات
والحفر متجاوزاً المواقع المائية التي شكلتها السيول وهو
يخوض غمارها غير آبه بها فتارة يطلق العنان للسيارة
وأخرى يهدئ السرعة وهي تتوء بحملها وجبروت سائقها
وقد ارتفعت الحقائق والأكياس والصرر فوقها كتلٌ
شاهق عدا عن امتلائها من داخلها بالركاب والطيور
والأمتعة... مما يُظهر تمايلها بوضوح عندما تجنح
للانقلاب لكن مرعي وهو العنيد الحازم وقد اعتاد هذا
الطريق الجبلي الصعب لا يبالي بهذه العقبات.. صاحت
امراً بخوفٍ ظاهر: (تمهل يا مرعي ستودي بنا إلى
الموت) أجابها مرعي: (لا تخافي... السيارة فيها دبل
كبير يا حجة). وتابع مسيره وهو يأخذ نفساً عميقاً من
سيجارته اللف التي أعدها مسبقاً في علبة الدخان التي

تناولها من جيبه وقدح من ولاعته القديمة بصيص نار
بعد عدة مرات متتالية فالولاعة قداحة على الفتيل مضافاً
إليها عجلة وحجر لقدح الشرر... فهو لا يحب غيرها
ويستمتع بها وبسجارتة اللف وكأنه يقول طالما أنا
الذي أقود فتقوا ولا تخافوا وهذا النفس سلطان القيادة
طوى الكثير من القرى متجاوزاً إياها بسرعته الخاطفة
ويحاذيه عن شماله البعيد قطار حلب (الأوتو متركس)
الذي يمر في الشمال ويصل البلدان الأكثر سهولة وأقل
وعورة من غيرها داخلاً في الأراضي التركية ثم يخرج
منها ليكمل طريقه لبلدان أخرى ثم يعود. وفي تلك
المنطقة كان اقرب بمحاذاته لها.. وصوته القوي يجلجل
مدوياً فيسمعه الفلاح والسكان في ذلك المكان. انتصف
النهار وبلغ مرعي بحمولته منطقة عين العرب على
ضفة نهر الفرات الشمالية وهناك حط الرحال وأنزل
الأحمال ليتوزع كل واحد إلى وجهته وليبقى هو فيها
ينتظر القادمين العائدين إلى كل تلك القرى ليعود بهم في
اليوم التالي باكراً مع سجارة لفٍ أخرى وهمة جبارة
متمرسة حاضرة. وقف المعلمون الثلاثة وأمامهم كل
الأمعة يتحدثون فابتدر الحديث أولاً فايز الأسود قائلاً:

(ما رأيكم يا جماعة ها قد قطعنا شوطين حتى الآن،
السير على الأقدام ورحلة الجبال والآن لا بُدَّ لنا من
خوض النهر قال منير القاضي: (وأي نهر...؟) وأتبعها
بضحكةٍ (نحن لا نعرف السباحة ولنسنا في فصل
الصيف...) أجابه فايز الأسود: (يا شيخ نهر الفرات وهل
سنقطعه خوضاً أو مشياً لا بد لنا من باص كبير ليجتاز
بنا المسافة فوق العبارة..) قال فتحي الحاج خليل: (لازلنا
بعيدين عن النهر يا فايز) فسارع فايز الأسود بقوله (بل
لا بد لنا من السيارة الكبيرة خير لنا من سيارتين واحدة
لشط النهر وأخرى لحلب الشهباء فهنا يوجد النوعان
والأفضل الحافلة الكبيرة التي ستقلنا حتى مدينة حلب
وأنا أدعوكم من الآن لزيارتي يا شباب والنزول عندي
في مخيم النيرب خارج حلب فلا ترفضوا الدعوة لو
سمحتم...) قال منير القاضي: (يا أخي أنا قريب منك ولا
داعي للذهاب إلى مخيم النيرب ومخيم حندراتٍ ينتظرني
للعودة إليه ومشاهدة أهلي وأصحابي) قال فتحي الحاج
خليل: (لا داعي لكل ذلك فلدينا من الأمتعة ما يُقَوِّلُ حملنا
ويَهْدُ أَكْتَافَنَا وخير لي استمرار السفر حتى أصل دمشق
على جناح السرعة) فقال فايز الأسود: (أو تحسبني

سأتركك تذهب بكل ذلك وأنا ما دوري إذا وأين النخوة
والحميمة يا فتحي؟؟؟ لا مانع من ذهاب منير ولكنك
ستبقى معي وسأدبح ديكي الحبش الروميين واعدهما لك
ولن نتأقش في هذا مطلقاً..) خضع فتحي للأمر وأذعن
للإرادة وأطاع زميله، ثم تحصلوا على حافلة تنتظر
القليل من الركاب وكانوا هم أول الصاعدين، حين
انطلقت نحو حلب ميممة شطرها نحو الجنوب إلى أن
وصلت شط الفرات الشمالي وكانت، العبارة في الانتظار
لأنها تعرف مواعيد الحافلات التي تغتليها والمحاريث
وكل أنواع الحيوانات من غنم وجمال وبقر وحمير، فهي
كاليابسة المتحركة فوق صفحة الماء الغزير والنهر
العظيم الذي كثيراً ما فاض عن حده وتعطلت حركة النقل
فيه مما اضطرها للبحث عن جهة أخرى أقل خطراً
وأسهل منفذاً وكم غمر القرى القريبة منه والواقع بعضها
في مجراه أحياناً مما يعيق طرق الإنقاذ ويسبب الغرق
فيستعمل الناس الحلة الكبيرة لنقل عدد قليل لا يتجاوز
أصابع اليد كل مرة فيها وبمجاديف بسيطة حين يزبد
ويثور مختلطاً فيه الماء بالطين فيعتمر الماء ويتوحد
أخذاً معه كل شيء مقابل بلدة تل العمارنة حتى يتحول

النقل إلى نل الأحمر ونل الأبيض في جهات أخرى أقل
 خطراً وربما يبتعدون أكثر حتى (الرَّقَّة) المتاخمة
 لمجرأه... والتي أُقيم في بعض مساحاتها سدُّ الفرات
 العظيم ومشروعه الذي حَوَّل الأرض إلى جنات وساعد
 في توليد الكهرباء عن طريق العنفات (التوربينات)
 الضخمة التي صارت تُغذي مدناً كثيرة في سورية
 وتساهم في تغذية شبكات الدول العربية الشقيقة المجاورة
 كالأردن ولبنان فهذا الصرح العملاق الذي أُقيم منذ
 السَّبْعينات على نهر الفرات والجهود التي رافقته بعثت
 الحياة في بلادنا والنور في مدننا وقرانا وأزهر الخير في
 مناحي حياتنا كلها وما رافقه من مشاريع أيضاً...
 صعدت الحافلة بكل ما فيها فوق العبارة وصعد المحراث
 والعديد من الحيوانات والأمتعة وانطلقت تمخر عياب
 النهر متلاطم الأمواج فيها هو قد ازداد منسوبه، وربما
 من يعبره الآن لا يتمكن بعد ساعتين من عبوره إن عاد
 إلى عين العرب ثانية.

وصلت العبارة الشط الثاني الجنوبي وانطلقت
 السيارة من عقالها سابحة في فضاء واسع عبر المسافات
 تجتاز المدن والقرى والأرياف فتلك هي جرابلس ثم منبج

البحتري الشاعر المبدع شاعر الوصف والحماسة
وقصيدته في وصف إيوان كسرى خالدة تجسد فنَّ شعره
عبر الأجيال المتعاقبة وتظهر الربيع في ديوانه كأجمل ما
يوصف... وتابعت الحافلة رحلتها وبدأ الزملاء
بالمساجلات الشعرية فيما بينهم إمتاعاً لأنفسهم ورغبة في
طي المسافات والقرى، والمنازل تبدو مع سرعة الحافلة
كأنها في سباق لا ينتهي... وقبل أن تصل الحافلة مدينة
حلب بعشرين كيلو متر تَرَجَّلَ الشُّبَّانُ وكل منهم قادم من
مخيمٍ اثنان من حَنَرَاتٍ والنيرب وفتحى من مخيم
اليرموك في جنوب دمشق التاريخية الأموية عريقة
الجنور مشرقة الوجه الحضاري قابضة عبر العصور
بهيبتها الجليلة وتاريخها الحافل وعظمتها الأبدية والتي
تكتنفها غوطتان شرقية وغربية تزيناها بالاخضرار
والجمال والبهاء الساحر ما بقيت شامخة في كل زمان
وما بقي شعبها الحرُّ الأبي نماءً نفاقة حارة والتي تطاول
الأيام وتبدع الابتكار وتُخَلِّدُ الأساطين...

قرع فايز الأسود باب بيته المتواضع في مخيم
النيرب وجميع البيوت والمساكن كلها متشابهة في هيكلها
وبساطتها وبعض بيوتها مبني من الخشب والصفيح

والآخر بالإسمنت والحديد غرفها صغيرة، وأثاثها بُسُطٌ
ومواقد شتوية قديمة والتي يسمى مفردها (المنقل) فوقه
بضع جمرات من حطب وفحم، قليلة الطوابق متوحلة
الطرق رديئة التهوية سيئة الإنارة بدائية جداً يلعب في
طرقاتها الأطفال والأمطار تهطل وهم في غنى عن
الفخامة والحضارة همهم اللعب وبناء المجسمات بالرمل
والبعض الآخر يتبارزون مع زملائهم بسيوف خشبية
صنعوها لأنفسهم وقد مثَّلَ كل منهم الفدائي والعدو فهم في
بوتقة متماثلة تعيش للجوء بعيداً عن فلسطين التي رزحت
تحت نير الاستعمار إِيَّانَ الحرب العالمية الأولى بدخول
الجيش البريطاني والذي مهد فيما بعد بتواطئ حكومته
لدخول اليهود وهجراتهم المتلاحقة وقرارات التقسيم ووعدهم
بلفور الجائر بمنح فلسطين لليهود كوطن قومي لهم،
رسخت هذه المأساة جنورها في الأجداد والآباء والأحفاد
ولا زالت الصورة بادية في أفعال الأطفال في أزقة مخيم
النيرب وكل المخيمات الموجودة في العديد من الأمكنة لقد
استعاد فتحي الحاج خليل تلك الصور التي ألفها في مخيم
خان الشيخ ومخيم فلسطين واليرموك وذنون وجرمانا
وخالد بن الوليد في حمص مروراً بالمخيمات في لبنان

كمخيم صبرا وشاتيلا وكذلك البقعة في غرب عمان
والوحدات في شرقها وما أكثرها موزعة في الشتات نشير
كلها لأصابع العدوان الصهيوني الآثم وتواطئ الاستعمار
البغيض وتؤكد دور الدول العربية المحيطة بفلسطين
وسعة صدرها لاستقبال أبنائها وإقامتهم على أرضها
وشمولهم بالعناية والاهتمام مما عزز روح الثأر ضد
العدوان وأصل في الأبناء تقدير ذلك الموقف من قبل
الدول الشقيقة والمساندة للحق والعدل في جميع الظروف
حتى استعادة الوطن السليب... ولم يقف الإنسان
الفلسطيني عند هذا الاغتراب والاستكانة للضعف والهوان
فقد تجاوز محنته وعصف باغترابه وكان جديراً أن
ينهض من كبوته. ويحقق ذاته من خلال التعليم فهو سلاح
كل ناجح والشعب الفلسطيني هو أحوج ما يكون إلى
ذلك... فتحت امرأة عجوز باب بيت فايز الأسود وأطلقت
برأسها فوجدت ابنها فرحبت به وقال لها: (معي ضيوف
يا أمي...) فازداد ترحيبها به وبضيوفه وأطلقت زغرودة
عالية فلسطينية وتجاوبت أصداؤها مع جدران البيت حتى
شاركتها بناتها الثلاث واشتعلت الحارة بالزغاريد على
سماع الزغرودة الأولى وتعاضم الترحيب ودبت في البيت

حركة غير اعتيادية فماذا يفعلون وهم في غاية البساطة وضيق الحال لكنهم كُرماءُ فالموجود خير ما يقدم من شاي وقهوة وبضع حبات من فاكهة الشتاء البرتقالية. دخل فايز وزميله فتحي وعَرَفَ فايز عليه أمام أهله وأنه من مخيم اليرموك في دمشق فقالت الأخت الكبرى: (نحن شركاء إذا... أهلاً وسهلاً ويا حياك الله.. تفضلوا بالجلوس. المكان متواضع... نعتذر يا أستاذ فتحي...) أجابها فتحي وعلام الاعتذار وكما قلت نحن شركاء والحال واحدة يا آنسة). كانت بهيجة معلمة في مدارس نيرب حلب التابعة لوكالة الغوث، صبية يافعة ناضجة كأنها رجل في تعاملها تخطط بزملائها من المعلمين ولكنها ملتزمة بالأخلاقيات وطنية الاتجاه ثورية الشعور حاضرة البديهة تحب وطنها السليب وتعشق وطنها المضيايف وقد وقعت في نفس الأستاذ فتحي بمكان القلب بهره وطنيتها وسحره جمالها وملاك عليه حسه وأسعده أن يجد مثلها في شعبه الذي لا زال على عهده وولائه وانتمائه لفلسطين... همس فايز الأسود في أذن أمه قائلاً: علينا بإعداد الطعام يا أمي والآن ها هي الساعة الخامسة مساءً ونحن صائمون، وفتحي لا يحب التأخر عن أهله

أسرعي مع شقيقتي بالطعام مع المغرب ثم لديه ديكا
 حبش روميان في فسحة الدار لا بد من نَبْجِهْمَا وتَظْطِيفُهْمَا
 ليأخذهما معه في رحلته بعد الإفطار) قالت الأم: (حاضر
 يا فايز كل شيء سيكون جاهزاً إن شاء الله) وانصرفت.
 قال فتحي: (حقاً أنا سعيد بزيارتكم فأنتم مثل أهلي
 وقد وجدت فيكم اللهفة والطيبة والبساطة والترحيب وهذا
 زاد سعادتي ولو تأخرت عن أهلي بالوصول إليهم) دخل
 أبو فايز الأسود بيته بعد قليل قليل أذان المغرب استعداداً
 للإفطار فوجد فتحي يجلس على أريكة فوق بساط ...
 تعارفاً فازداد الترحيب خاصة أن أبا فايز يعرف بعض
 الأصدقاء في مخيم اليرموك فتوثقت الصلة عبر الحديث
 واستأنس كل واحد بالآخر وتسامرا مع طعام الإفطار ثم
 ودع فتحي الجميع واستأذن بالانصراف مغادراً وهو يقول
 لزميله فايز: (أحب مصاهرتك يا فايز ... فهل أجد
 فرصتي عنكم بالزواج؟؟؟) استغرب فايز من زميله
 لهذه السرعة ثم قال: (ومن هي؟؟) وعقب: (نحن في جو
 البيت تسودنا الديمقراطية وحرية الرأي فمن هي
 أخبرني ... من اخترت حتى أتصرف!؟).
 قال فتحي: (هي تعرف نفسها أظنها بهيجة). فقد

كانت تنتظر إليه من طرف خفي قال فايز: (ما رأيك يا
بهيجة إنه يطلبك زوجة يا أختي فهل توافقين؟) أسبلت
بهيجة عينيها بالموافقة دون كلام ومضى فتحي الحاج
خليل على أمل العودة بصحبة أهله خاطباً لها... وهو
يحمل الأمتعة وأبقى ديكاً رومياً واحداً عربون تقدير
ووفاء واقتران.

قطرات من ذاكرة الفكر

القصة بدأت بحكاية نساج ثياب وأمير

وحضورٌ جاء لتصفيق في كل قرارٍ ومصير

تذكر عمرو هذه العبارة عندما كان يجلس في
المقعد الأول من الصف الأمامي في مسرح المدينة وهو
يشاهد ما يراه أمامه مشابهاً لما كان قد قرأه عليه يوماً
ذلك المدرس الحريص أن يُفَنِّدَ كل شيء لتلاميذه في
حصته التي كان يدرسها في مادة اللغة العربية من كتاب
القراءة في الصف الخامس حول مشهد في درس ما بين
أميرٍ ونساج وحاشية وحضور... إذ لخص عمرو كل ما
قاله ذلك المدرس في عبارة مختصرة بعد أن أمعن النظر
في شرح المدرس باستشرافٍ مضمون مشهد المادة وكان
كثيراً ما يفعل هذا وكأنه أديب أو كاتب أو شاعر يلاحظ
ويتلقى ويمعن للنظر ويفكر ثم يبوح بعدها بما فاض على
لسانه من خواطر تفاعلت مع نفسه لتُكوِّنَ ما يشبه الحكمة

الموجزة أو القول المأثور للمدرس إذ ذكر ما قاله بصوت مسموع (القصة بدأت بحكاية..) وأكمل عبارته.. هكذا قال عمرو لمدرسه بعد استجلاء ما سمع حول مضمون القصة فاستغرب منه المدرس ما نطق به وطلب منه أن يعيد عليه ما تفوه به منشداً ثانية وما قد جرى على لسانه... إذ مثل هذا القول لا يكون إلا للكبار من البالغين الذين عرفوا الحياة فأثمرت تجاربهم بحكم ولكن لم لا يكون عمرو أحد هؤلاء طالما أن المدرس يعهد منه النبوغ والوسامة وحسن الإلقاء والحضور الدائم لكل ما يشرح ويقول. وما الغريب في ذلك فقد أثنى عليه مدرسه وشجعه ورَبَّتْ على كتفه قائلاً: أحسنت وأبلغت ولا شك أنك أوجزت فيما قلت حكمة هي أصدق ما يمثل المشهد بطلاقة وسلاسة وعفو خاطر يا عزيزي..

لكن عمراً خاطبه مقاطعاً: لا يا أستاذي ما كان ذلك عفو خاطر فقط ولكنه نتاج التركيز وحصاد الانتباه (والرفض لما هو كائن نحو ما يجب أن يكون) فازداد استغراب الدرس وتعظم إعجابه بتلميذه النابه أكثر وأكثر وشجعه ثانية على مثابرة الاطلاع والقراءة ليعزز موهبته

بالجديد لما يكتبُ وينشر في قابل الأيام وتوقع له مستقبلاً
مُشرقاً مُشرقاً.. وقد كانت تلك الصورة هي التي عبرت
خياله عندما كان يشاهد عرض المسرحية يومها وهو في
إحدى سفراته إلى قطرٍ عزيز عليه، له فيه أصدقاء
وندماء وأحبة هو مصر. وقد كانت لديه فسحة من الوقت
فارتأى الذهاب إلى المسرح، وكثيراً ما تردد على معظم
المسارح هناك وشاهد عروضاً كثيرة في العاصمة
القاهرة، وكذلك مَينَةُ الإسكندرية "كمسرح البالونة
ومسرح المد بوليزم والعديد وغيرهما".

ولكن ما شدَّ انتباهه اليوم هي تلك المسرحية التي
رآها والتي كانت تمسّ وتر الإحساس وتظهر ببراعة ما
كان يأمل أن يراه يوماً مشابهاً لما قاله وهو صغير في
قاعة الدرس مع مدرسه في الصف الخامس..

فبدأت مقارنته وتذكر ما قاله للمدرس وما كان
وقتها من إمعانه في المشهد وعبارته التي قالها.. إذ ذاك..

هي... القصة بدأت بحكاية نساج ثياب وأمير.

وحضور جاء لتصفيق في كل قرار ومصير.

وبدأت ذاكرته تستعيد تلك الصورة التي طبعت في
 مخيلته يوماً وعيناه تتابعان العرض المسرحي ولكن ذهنه
 رحل مع خيالاته القديمة ليستعيد تلك المشهد فما أشبه
 الأمس باليوم إنه يجد توافقاً وتقارباً في الصورتين وابتسم
 مستغرباً محدقاً مسترجعاً غارقاً في اللوحات والعبارات
 والمشاهد. أليس ما سمعه يتقارب في نفس الموقف مع ما
 يراه الآن. حقاً إنها مفارقات عجيبة وتوافقات أحياناً وكما
 يقال "وقّع الحافر على الحافر". فقد رأى في صورة الأمير
 ما يماثل حالياً من صور كثيرة أحياناً..

وما شجعه على استحضار الذكرى وتوارد
 الخواطر صوت الممثلين المرتفع فتجسدت في تلك اللحظة
 ما مثله التلاميذ الصغار أمامه لذلك المشهد حيث جلس
 الأمير على مقعده المرتفع بأبهته المميزة وحوله لفيف
 الحاشية وإلى جانبه وزيره الساحر يهمس في أذنه: هاقد
 جئنا لك يا مولاي الأمير بالنساج البارع المبدع وسنرى
 من براعته وقدرته على العمل والإنقان وحسن الصنعة ما
 يشد الانتباه ويأخذ بالألباب والعقول .

وقد كان الجمهور والحضور من بعض العامة
والكثيرين من المقربين لحاشية الأمير وندمائهم ووزرائهم..
وطفل صغير يجلس بجانب والده..

إذ ذاك أوقف الوزير الساحر قائلاً: هيا يا نساجنا
البارع اصنع لنا رداءً جديداً.

كما فعلت بالأمس القريب في حضرة مولاي
الأمير. ثم اقترب الوزير الساحر من النساج الحائك
ليهمس في أذنه محدثاً: "كما علمتك وأخبرت وأوضحت
لك.. ولا تخش شيئاً".

بعدها صدح صوت الوزير الساحر عالياً ثانية: هيا
ابدأ براعتك وأحسن صنعك واجتهد فيما تفعل..

أعطى النساج الحائك رأسه موافقاً بالإيجاب منتظراً
إشارة الأمير له بالبداية فوافاه الأمير بها وبدأت القصة
وتتابعت الحكاية.. بدأ النساج الحائك ينصب قوائم
وعارضات نوله استعداداً للنسيج وصنع الرداء المزخرف
المزركش لشخص الأمير العظيم وتوالت حركاته بوضع
خيوط الحرير وشدها على النول كاللحمة والسداة محركاً

المكوك فيما بينها يمنة ويسرة متأنياً في عمله بارعاً في حركاته وكان في ذلك يصاحب العمل بالقول أمام الحضور والنظارة قائلاً: "لابأس فقد اخترت من الألوان أزهاها ومن الخيوط أقواها ومن آلة الصنع أجودها لتتناسب مع مستوى العمل ونفاسة الهدية". وتابع محركاً يديه ورجليه فيما يصنع ويحيك شارحاً كل خطوة أمام حضوره بدقة متناهية ليستمتع الجميع بما يفعل وما يبدع..

عارضاً كل ذلك في قاعة الأمير والحضور في شغب بالغ وتقدير وإطراء واهتمام والجميع مشدود في انبهار ودهشة مأخوذين بكل ما يفعل ويبدع... والأمير يهز رأسه مشيداً ناظراً لحسن العمل بالرضى منتبهاً شأن الحاضرين والوزير الساحر يتخير عبارات الثناء ليخلعها على النساج الحائك فتجواب عباراته مع ما ينلفظ به كل من الجمهور بصدى يرن في أرجاء القاعة مجاملين موافقين لكن الصبي كان ينظر إلى كل ما يراه أمامه بدهشة أعرب واستفسار أعجب.

ينظر إلى الأمير تارةً مستغرباً استغراقه
واندماجه وتارةً يراقب الوزير الساحر وأخرى نحو
الحضور بانبيهارهم ودهشتهم، حتى كان أن قال الحائك:
"الآن وقد انتهيت من عملي هذا أشكر لكم إعجابكم
وسأقدم ما صنعت هدية لمولاي الأمير فتعالت الهتافات
وكثر الثناء وعبارات الاستحسان المظلف بالمديح
والمجاملة..

لكن الطفل الصغير الذي كان مستغرباً أشد
الاستغراب منفعلاً أشد الانفعال، مستهجنًا ذلك العمل الذي
لا يرى والفعل الذي لم يتحقق، صادقاً في أحاسيسه
ومشاعره، واثقاً من نفسه بأنه على طرف النقيض من كل
هؤلاء. فما كان منه إلا أن صاح قائلاً: أنا لا أرى شيئاً
سوى حركات لرجل أو همكُم بما يفعل.. فعلام الدهشة
والانبيهار؟؟ والعجب والابتسام والضحك؟؟ لا شك أنكم
بلهاء؟؟ لا ترون غير الأوهام.. "وكأن على رؤوسكم
الطير" فأسقط في يد الحضور وشعروا بالخزي من ذلك
الصغير الذي أيقظ فيهم صحوة الجراءة وحسن الانتباه

وعلم الاقتناع إلا بما هو صادق وهو حقيقي وواقعي
ملموس. من غير خوف أو رهبة أو تهديد..

وقد شعر عمرو لساعته أنه يُرَدُّ بصوتٍ منخفضٍ
ثانية ما قاله وقتها...

القصة بدأت بحكاية... وعبارته الثانية التي كانت
رداً على استحسان المدرس.. لا يا أستاذي ما كان ذلك
عفو الخاطر فقط ولكنه نتاج التركيز وحصاد الانتباه
والرفض لما هو كائن نحو ما يجب أن يكون..

وهنا علا التصفيق في صالة المسرح من جمهور
الحضور معلناً ختام المشهد الأخير من مسرحية الانبهار
فصفق مشجعاً لمسرحية أو قصة أحب أن يشاهدها واقعاً
صحيحاً فتجسدت أمامه بممثلها ومشاهدها فخرج
والابتسامة تعلو شفتيه بالأمل في غدٍ سعيدٍ مشرقٍ.

أمانة الرسول محمد بن عبد الله (ص) في سيرته العطرة

بينما كان رجل الإنسانية ونبراس العفاف وسيد العرب والعجم محمد بن عبد الله (ص) يتوجه نحو الكعبة ماراً بقبائل العرب المتناحرة، إبان وضع الحجر الأسود في بناء الكعبة، وقد كان محمد (ص) يشغفه التأمل في خلق السموات والأرض.. والخالق الحقيقي للكون الواسع.. منزل المطر.. ومنبت الشجر.. ورب العرش العظيم الذي تتزه عن كل وصف، رب الأرباب ومرسل السحاب، وواهب الأبواب، الله الواحد القهار الذي خلق محمد بن عبد الله (ص) هادياً للعالمين وخير الأولين والآخرين. وقد قال فيه سبحانه وتعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

محمد (ص) الذي أصبح رسول البشرية ونبي الإنسانية، فأخلاقه في عصر الجاهلية نقيّة من كل دنس، بعيدة عن

الرجس والمعاصي، وهو الصادق أمين. فقلك شيم
الرسول (ص)... ومن لا يحب التعرف على صفات شفيح
البشرية والمسلمين المؤمنين؟!..

وذلك أنه كان يختلف بصفاته وعاداته وأخلاقه ومعاملاته
وكل سماته عن أي إنسان آخر عاش على أرض الجزيرة
العربية وتحسس ما تعانيه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان
ومرارة الؤاد ومجالسة الغواني والقيان ومنادمة الجلساء
في ليالي الطرب الحمراء، والعادات الموروثة الهمجية
من شرب للخمر وضرب بالقداح ولعب القمار وعبادة
الأصنام.

وذلك آلهة كانت لعرب الجاهلية كاللات والعزى
ومناة الثالثة الأخرى.. وقد كانت الكعبة تغص بأشكال
الحجارة التي تمثل هياكل الآلهة والتي لا تغني عن الله
جل جلاله في شيء من حجارة صماء منحوتة، وهل من
ينحت إلهاً بيده يكون طريقاً للعبادة والتقديس فذلك منتهى
الحمق وسذاجة العقل وسخف التفكير. فالله خالق الكون
هو الواحد القهار، خالق الليل والنهار ومالي الضرع رب

العرش العظيم، فالشمس تطلع من الشرق وتغوص في
المغرب بمشهد رائع، والبحر يهدر بعبابه الزاخر وكل ما
في هذا الكون له نظام دقيق محكم، أليس لذلك من خالق
ومعبود، أبدع صنعه وأحكم انقائه.. بلى فهو الله خالق كل
شيء.

وهذا ما كان يدفع محمد بن عبد الله (ص) للتأمل
والتفكير والبحث والاستقصاء عن كل الترهات التي
حكمت عادات العرب في مجتمع كان الطغيان والكفر
والفساد والحروب والتناحر، أولى تلك الأسباب التي لم
يألفها وعافها منذ أن وجدها في مكة ولم ينخرط بها، ولم
يتعامل معها، بل كان يرفضها ويبحث عن القيم السامية
البديلة لما يراه سيئاً وقبيحاً في مجتمع الجاهلية.

ألا ترى أيها القارئ العزيز أن من يرفض مجتمعاً
سيئاً ليجد ما هو فاضل ليتعرف إلى الخالق المصور
والمعطي الوهاب.. فالله ذو الأسماء الحسنى.. وصفه بأنه
على خلق عظيم.

فمحمد (ص) ولا شك يستحق أن يكون سيد البشرية، فقد عاش شبابه متأملاً عابداً متفكراً في خلق السموات والأرض، باحثاً عن الله في كل آياته ومحمد (ص) لم يسجد لصنم قط ولم يتعاش في الأجواء التي اعتادها زعماء قريش ومجمل العرب، وقد تحلى بالأخلاق الكريمة، وعلى رأسها الصدق والأمانة.. والأمانة أعلى مرتبة في أخلاق الإنسان. بيد أنه كان موضع الثقة، وموئل الأمانة والاستقامة وإليه يتوجه من أراد ذلك.

وقد تجسدت تلك الصفات فيه بعلاقته مع من سواه، حيث اختلف زعماء قريش وقبائل العرب في وضع الحجر الأسود في مكانه من بناء الكعبة بعد أن تهدمت وأعيد بناؤها، وكانت المشكلة توصلهم إلى الصدام والقتل والتقاتل كي يفوز من هو أجدر بالمكانة والرفعة والسطوة لقوة بشرف وضع الحجر في مكانه. وكان "اقتراح أبو أمية"^(١) وهو تحكيم أول داخل عليهم.

^(١) - من كتاب تأملات في سيرة الرسول: ص ٢٢-٢٣، للدكتور: محمد السيد الوكيل.

فلما انتهى إليهم رسول الله (ص) أخبروه الخبر فقال: (هلموا إليّ ثوباً^(٢)) فأتى به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم رفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه.

والحقيقة التي لا خلاف عليها هي أن محمداً قد حسم النزاع الملتهب الذي كاد يقضي على منزلة قريش بين العرب، وحفظ عليهم وحدتهم التي كانت معرضة للانحيار وقد قبلوا تحكيمه بشوق أكثر لأنه الصادق الأمين. ومن الجدير بالذكر أن الرسول محمد (ص) كان يرعى الغنم وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ص) قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ قال نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة".

ورعى الغنم يحتاج إلى سعة الصدر وحسن الحيلة وطول البال وإذا فقد الراعي شيئاً من ذلك ضاقت بغنمه فنفرها أو ضاقت هي به فنفرت منه، وفي هذه المهنة من

(٢) - نفس المصدر.

الصفات العظيمة التي يكتسبها من يؤديها أمور مهمة
مثل: حسن السياسة والحرص على الرعية والانتباه
واليقظة. وكل هذه الأمور مجتمعة في واحدة من أهم
صفات الإنسان ألا وهي (الأمانة).

فالأمانة من أهم صفات الراعي الأمين، وحيث أنه
مؤتمن على ما تحت يده فإذا لم يكن أميناً عرض رعيته
لكثير من المفسد، وفقد شيء منها يؤدي للخيانة. ولهذا
أراد الله عز وجل لكل رسله أن يرعوا الغنم ليقودوا
أممهم على أساسها قيادة رشيدة.

وهذه الصفات واضحة جليلة في حياة الرسول عليه
السلام فكان يقطاً لكل ما يفعله أصحابه لا يرى مخالفة
ويسكت، وكان يتفقد أصحابه إذا غابوا ويطمئن عليهم إذا
حضرُوا ويعودهم إذا مرضوا وما أعظم وصف الله له:
(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

وفي حرص الرسول على أصحابه وأمنته أمانة
كبرى ولذلك كانت أمة خير أمة أخرجت للناس، فرعي

الغنم وأمانة الراعي فيها يقود إلى أمانته في رعيته فيما بعد والحفاظ عليها وصونها.

ومن المفيد أن نذكر أن قوم الرسول قد سموه منذ صغره بالأمين، ويكفيه ذلك أن قومه كانوا يودعون نفائسهم وأموالهم التي يخافون عليها عنده، حتى هاجر إلى المدينة وأمانتهم لا تزال في بيته، وقد ترك علياً رضي الله عنه ليردها إلى أصحابها ويؤديها إلى من انتمنه عليها.

والواقع أن الأمانة قد عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأثقلها، وحملها الإنسان، والإنسان بطبعه فيه الخير والشر والحب والكراهة والمتناقضات جميعاً، فمتى كان يتحلى بالنبل والتسامي وحسن الأخلاق سمت به تلك الصفات إلى العلو والارتقاء نحو القيم السامية العظيمة. وإن كانت الرغبات الدنيئة الدنيوية تماك عليه إحساسه وتفكيره كان ذلك الإنسان مخلوقاً عجبياً لا يعترف بنعم الله فيفسد في الأرض وينحط إلى قاع الدنيا، وشهواتها فلا يصلح أن يتحمل عبئاً

أو يرعى أو يؤدي أمانة أو يعد بصدق القول وشرف الكلمة ولذلك قال الله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) لأن بعض الناس يؤتمنون فلا يرعون أماناتهم ويخونون ويخدعون، ويجهلون على غيرهم بظلمهم وعدوانهم فيصيرون كما قال الله آنفاً في الإنسان.

والله سبحانه في الآية الكريمة، يصف قيمة الأمانة وعظم المسؤولية عندما عرضت على السموات والأرض والجبال والرواسي، فأبين أن يحملنها، وذلك لما للأمانة من قيمة كبرى ولما بحملها والمحافظة عليها من مكانة مهمة، وقد عرضت على الإنسان فحملها، والإنسان أهل للمسؤوليات فقط للمصالح المصلح، والراعي الأمين لكل ما يوكل إليه فيحفظ ويؤدي ويصون وهو صاحب الأخلاق الحميدة والسيرة الكريمة.. ومن غير محمد بن عبد الله (ص) كفتاً لذلك وقد حمل رسالة السماء رسالة التوحيد من رب العالمين عن طريق جبريل عليه السلام، وأداها حق أدائها وكان لتلك الأمانة مآثرها على العالم اليوم، ونشر دين الإسلام في أقطار الأرض وبين جميع الأجناس من البشر، ولو لم يحفظ تلك الأمانة ويسعى لها ويهاجر

من أجلها ويتحمل أذى المشركين والكفار ويقاقل في سبيل إعلاء كلمة الله لما كان دين الإسلام يشمل المعمورة ويسكن أفئدة المخلصين لدين الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله تعالى: (فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ).

فأمانة الرسالة ونشر الدعوة والصبر على المكاره والجهاد في سبيل الله كان الطريق لخير العالمين، والرسول محمد (ص) من أولي العزم من الرسل، فهو خاتم الأنبياء وآخرهم وأفضلهم وقد صعد إلى السماء ورأى ما رأى لأنه أهل لحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، وقد قال الله فيه: (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَفُضُّوا مِنْ حَوْلِكَ).

ولا يخفى عنا قصة الرسول وزواجه من السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين التي اختارته ليذهب بتجارتها إلى الشام بعد أن قالت لعمه أبي طالب (أعطيه ضعف ما أعطي رجلاً من قومه) فخرج عليه الصلاة والسلام مع غلامها ميسرة، فلما رجع بالتجارة من الشام أرسلت خديجة مولاتها "نفيسة" بعد أن أعجبت بأمانة الرسول، فقالت له نفيسة: "ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما

أتزوج به. فقالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والشرف ألا تجيب؟ فقال (ص): من هي؟ قالت خديجة بنت خويلد... فوافق وتم الزواج ولها من العمر أربعون سنة وكان عمره خمس وعشرون".

وخصّال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام هي التي كانت طريق الحب والمودة من الناس إليه..، ونحن المسلمون نسير على هدى رسالته وحسن معاملته وأمانته المتميزة، فمن أراد بلوغ التبوّء والارتقاء والسمو والعلو سما بأخلاقه واتخذ من أخلاق الرسول محمد (ص) هادياً له ونبراساً ليجد له بين الناس المحبة وحسن القبول والإقبال.. وهكذا.

والأمة الإسلامية كما قال الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وشرف الانتساب إلى الأمة الإسلامية لا يعاد له شرف بين الأمم فقد كرمها الله بنبيها المرسل والهادي الأمين وقد قال الشاعر في سيرة الرسول العطرة الأبيات التالية:

للهِ دَرْكٌ كَمْ لَا قِيَتَ مِنْ عَتَاتِ

كَيْ يُصْبِحَ الدِّينُ فَوْقَ الْأَرْضِ مُنْتَشِراً

آمَنْتَ بِاللَّهِ إِذْ حُمِّلْتَ أَغْيَاءَ

لَمْ تَأَلْ جُهِدًا وَقَدْ أَعْلَنْتَهَا جَهْرًا

صُنْتَ الْأَمَانَةَ عِبْرَ الدَّهْرِ فَازْدَهَرَتْ

مِنْ هَذِي سِيرَتِكَ الْغُرَاءُ مَا بَهْرًا

وَأَنَا لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ

نهاية المطاف

أقلعت الطائرة في الساعة الثانية من أرض المطار في طرابلس الغرب ظهراً نحو أوروبا تحمل عليها عمالاً من دول أوروبا الشرقية لشركات كانت تعمل في ليبيا وانتهت مهمتهم بعد إنجاز أعمال الشركات عائدتين لبلادهم متحمين بالبضائع والهدايا ودفاتر الشيكات في تلك الفترة من الإنجازات الحضارية والعمرانية الشاملة في كل البلاد ولم يكن على ظهر الطائرة سوى اثنين من الشرق العربي ضمن ذلك الكم الهائل من رعيال العمال العائد نحو بلاده في ذلك اليوم.. وقد تجاوزت الحرارة في أرض المطار نسبتها المعتادة حتى بلغت أكثر من أربع وأربعين درجة مئوية... فالشمس المحرقة والرطوبة العالية والوقوف في قاعة المطار مع ذلك الازدحام وتلك الأعداد التي تربو على الثلاثمائة مسافر... كل ذلك ساعد على ارتفاع الحرارة فوق المعقول وصار الجو خانقاً قابضاً يثير الضيق ويبعث

على السأم والانعقاد من ذلك المكان حتى جاء الفرج بعد ساعات طوال من الوقوف وتأخر الطائرة.. فتدافع الركاب فرادى وجماعات إلى سلم الطائرة بعد إجراءات الجوازات والشحن والتفتيش كي تقلهم الطائرة اليوغوسلافية إلى صوفيا عاصمة بلغاريا في أوروبا الشرقية... جلس باسم أحمد أبو الوعر بصحبة زميله سعيد السيد في مكانين متجاورين متلاصقين في الدرجة السياحية حيث المقاعد الأولى والتي تتقدم الأجنحة ليسهل النظر إلى الفضاء الفسيح الواسع والبحر الممتد من تحتهم إلى اللانهاية فهما لا يران بعد الإقلاع إلا الماء والفضاء والسماء. كثرت الجلبة والحركة في الطائرة بداية حتى استقر الجميع وبدأت المضيفات بعد وضع الأحزمة بتوزيع العصائر وحبات السكاكر وبيع الدخان وأنواع المشروبات الكحولية والروحية وبعض زجاجات العطر الفاخرة. لم يكن يشغل بال الزميلين ذلك الذي يُقَدَّم وَيُبَاعُّ بقدر ما انشغلوا بما قاله المضيف الأول حول أساليب السلامة واستعمال الأدوات عند الخطر كذلك التي توضع للتنفس ثم المزلاج الذي هو بديل لسلم الطائرة وما إلى

ذلك. من نصائح قدمت بشكل سريع وعلى عجل وكيفية استعمال وسائل التكيف والتهوية بالإضافة إلى الإشارة لوجود المجلات والصحف اليومية في جيوب المقاعد التي يجلس عليها الركاب... جاءت إحدى المضيفات بأنواع العصير والبيبي متقدمة من الراكبين الجديدين على طائراتهم وهما مستغرقان في الأحاديث حول بداية الرحلة ودواعي سفرهما، فهمست للأقرب إليها بالكُنْية الإنكليزية ليأخذ كوباً ففعل وتناول زميله كوباً آخر... وهما قد اتفقا على السفر وقضاء الإجازة خارج مكان عملهما والتوجه نحو أوروبا لقضاء المدة المتبقية من إجازة عطلة الصيف سائحين في ملك الله الواسع. فالسفر والترحال والتجول كل ذلك من صميم الرغبات الملحة نحو استكشاف المجهول ومشاهدة الدنيا على حقيقتها والتمتع بجمالها أينما كان ذلك موجوداً... تلك هي الجولة الثالثة التي قاما بها معاً فالأولى كانت في تونس الخضراء والثانية في مصر والثالثة هي هذه نحو أوروبا وبداية إلى بلغاريا... أولاً تحدد يوم سفرهم بعد أسبوع تقريباً ريثما يُنجز كل منهما إجراءاته الوظيفية

والانتهاء من الامتحانات والمراقبة في اختبارات الشهادات العامة، وتحضير الأمتعة استعداداً لليوم الموعد. ثم إنجاز التأشيرات على جوازي سفرهما وتذكرتي الطائرة وكانت هي الأولى وقبل كل شيء لهذا كان لا بد من تحديد الوجهة وإنجاز الحجز والتأشيرات. ذهب سعيد السيد قبل مغادرته بنغازي (نحو طرابلس الغرب) إلى صندوق بريده أولاً ليستطلع ما فيه كآخر عمل يقوم به منتظراً زميله باسم أحمد حتى يأتي من مدينة إجدابيا في عمق الصحراء، التي يعمل فيها ضمن حقول النفط كي ينزل عنده تلك الليلة وقد انتهى كل شيء ولم يبق سوى المغادرة بالطائرة الداخلية من بنغازي إلى طرابلس ومن هناك الطائرة اليوغوسلافية التي ستغادر لأوروية.. فتح سعيد السيد صندوق بريده فنفجأ ببرقية في صندوقه تطمئنه عن جميع أفراد العائلة وأحوالهم وأنهم بخير وهم ينتظرون قنومه إليهم في إجازته الحالية حتى يكمل إجراءات الخطوبة التي تمت مع الفتاة الجميلة والتي تتصل برابط النسب بين العائلتين.. لم يصدق سعيد السيد هذا الأمر واستهجنه

كثيراً وضرب كفاً بكفٍ فمتى كان لرجل في هذا الزمان أن يطلق العنان لأهله حتى يتولوا عنه مهمة الخطبة والزواج من فتاة لا يعرفها ولا يعرف عنها شيئاً أبداً ولا حتى رآها مطلقاً، هَزَّ رأسه مستغرباً وَلَمْ يُلِغْهُمْ برغبته في أن يفعلوا ما فعلوا.. ترى متى كان هذا الأمر؟ ومن الذي أو كلهم بهذه المهمة؟ وكيف اتخذوا قراراً من تلقاء أنفسهم عنه دون أن يعلم؟ حتى أصبحت إجراءات الخطبة والزواج بالمراسلة وعن طريق الرسائل والبرقيات وكيف لهم أن يدركوا مواصفات الزوجة التي سيقترنُ بها مستقبلاً.. لا بد أنهم اختاروا عنه وقطعوا بأمرهم وها هي النتيجة موجودة بكلمات البرقية المقتضبة ولا شك أنها مأساة حقيقية سيكون هو أحد ضحاياها عما قريب. واستغرب أكثر حين قال: (ألا زلنا بعصر التخلف والجهل والتصرفات التي عفى عليها الزمن وطوتها سجلات التحديث إلى غير رجعة حتى تعود ثانية لتلبسني ثوبها وتخلعه على جلدي دون نقاش أو اعتراض؟!).. قرأ سعيد البرقية ثم أعاد قراءتها ثانية غير مصدق لما يقرأ ثم تحقق من كل حرفٍ وكلمة فيها مستشفاً من

خلالها كُتِبَ المضمون والغاية وإن كانت تتميز بالإبهام وفرض الأمر الواقع وعدم المناقشة لكنه قرأها مرات أخرى: (نحن بخير والجميع ينتظرون قدومك.. لا تبطئي بالعودة إلينا حتى نكمل إجراءات الزواج.. هي عروس جميلة وفي الثانوية... وابنة أبو عزيز... وافرح يا عم وسنوافيك بالتفاصيل لاحقاً عند قدومك) قال سعيد: (أي تفاصيل وأي أبي عزيز وهم كثر وأعرف منهم العشرات. ثم هي صغيرة ولا أعرف عنها شيئاً). تلك هي التي أرسلت البرقية دون تدبر وتتهم متسرعة كانت شقيقته التي نزلت من أمريكا لدمشق لزيارة الأهل فصادف وجودها مع شقيقها الكبرى سعاد في بيت أخي زوجها الذي عرض ابنته للزواج من سعيد السيد شقيق سعاد فرحبت سعاد بالدعوة مجاملة ليس إلا وكأنها رتبت تلك الدعوة والمناسبة لمثل هذا الغرض وما صدق والدها حتى قال: (إذاً نقرأ الفاتحة يا سعاد). وشرع ينفذ ما فعل ويؤكد ما يريد وطلب من زوجته أن تطلق الزغاريد بهذه المناسبة السعيدة فوقع سعيد بشراً ما رتب أبو عزيز من غير علم ولا معرفة وعن طريق أهله دون سابق إنذار

بفخ محتال في شر مصيبة لا تكون إلا لمغفل ساذج لا يعرف من الدنيا "الخمسة من الطمسة"... وقد حثَّ أبو عزيز على تسريع الإجراءات وسعى لنيل مراده في خطبة عاجلة كالخطبة الصحفية التي كان يسمع عنها في مسلسلات التلفزيون والسينما. إنه صاحب مآرب وقد وقعت الطامة الكبرى على رأس سعيد وكما يقال: (يا غافل إلك الله) ذهل سعيد من هذا وقد خرج من صالة صناديق البريد وهو يمشي نحو بيته والمسافة ما بينهما قريبة وظل يقرأ ثانية وثالثة ورابعة مشدوهاً مندهشاً في غير توازن وقد رآه زميله باسم قادماً حين ألقى عليه التحية فلم يسمع ردهً فاستغرب باسم من تجاهله وظن شيئاً أصاب العلاقة بينهما حتى اقترب منه وحرك كتفيه منبهاً مسلماً ثانية.. استيقظ سعيد من ذهوله وصحا من غفلته وسرحانه ونفض يديه من هذا الأمر معتبراً لزميله عن ذلك الشرود طاوياً تلك الصفحة إلى حين وقال سعيد: (أنا جاهز يا باسم سنقضي ليلتنا عندي وغداً نغادر إلى طرابلس بإذن الله...) أجاب باسم: (ما بال حالك لم أعده على هذا الوضع...؟ أخبرني) قال سعيد: (إن أهلي

يطلبون قدومي لزيارتهم ولكن ليست لي رغبة بذلك
وسنتوكل على بركة الله وهذا القرار الأخير... هيا ندخل
بيتنا... ثم هل أنت جاهز أيضاً...؟!) أكد باسم بإيماءته
بالموافقة. وهما يجلسان على مقعدين متلاصقين داخل
الطائرة. ولا زال أمر الخطوبة يشغل بال سعيد وإن
حاول أن يُبدي غير ما يعلن لكن باسم لم يحاول أن يُقحم
نفسه في أمور زميله الشخصية تاركاً ذلك للظروف
عندما تحين. وقد لاحظ على زميله استمرار الشرود
والقلق، ولكن ما باليد حيلة. أعلن ميكروفون الطائرة عن
وصولها فوق أجواء إيطاليا ولم يبق إلا القليل من الوقت
لدخول أجواء بلغاريا. تآرجحت الطائرة في الفضاء لشدة
البرق والرعد وسوء الأنواء في أوروبا.. يا الله في
الشمال الإفريقي الدنيا تغلي وتشتعل حرارة وفوق
إيطاليا الدنيا تعصف وتقصف الرعد وتزمرر غاضبة
والزمن هو شهر تموز من السنة في فصل الصيف.
ترجل الركاب لأرض المطار متوجهين إلى الصالة
والمطر المنهمر بغزارة يعطل الرؤيا خلال المسافة التي
سيقطعها الركاب نحوها... انتهت الإجراءات وخرج

الزميلان نحو أقرب فندق بالمدينة بعد أن استقلا سيارة
أجرة من أمام المطار.

البلاد جميلة والأشجار الخضراء طوال أيام السنة
تبهج النفس وتريح النظر والأمطار لا تنفك تهطل بين
الفينة والفينة وهذا ما يساعد على جمال الطبيعة
واخضرار الأشجار واستمرار البساط السندسي في كل
الشوارع والحدائق مهما امتد.

قضى الزميلان في أوروبا يتجولان بين دولها
الشرقية قرابة شهر يعبران دولها من دولة إلى أخرى
وكانت محطتهما الأولى صوفيا في بلغاريا ثم انتقلا إلى
هنغاريا وبولونيا وعادا إلى بلغاريا فيوغسلافيا لتكون هذه
المرحلة الأخيرة عند العودة إلى أعمالهما في الشمال
الأفريقي. بلغت سعادة الزميلين نروتها خاصة في بلغاريا
فهي محط أنظار الشعوب المحيطة بها، وهي تقع على
البحر الأسود وفيها مدن جميلة وسياحية للاصطياف
وتستقبل أعداداً تفوق الخيال من الزوار والسائحين
خاصة في مدينتها (زلاطنة) التي يرتحل منها السائحون

نحو الجبال المرتفعة والغابات التي رتبته يد الإنسان
 بغاية الفن والإتقان حيث شاطئ الرمال الذهبي الذي
 يستقطب أنظار المصطافين والسائحين عندها قال باسم
 (لا بد لنا الآن من العودة وقد حان الوقت يا زميلي فما
 رأيك؟) انتظر سعيد السيد برهة ثم أجاب (لا أخفيك أنني
 في غاية السعادة وليس لدي الرغبة في الذهاب لكن وقد
 حان الوقت والميعادُ فلا أقل من الاستعداد حتى نرجع)
 قال باسم: (ستكون عودتنا كما بدأنا بالقطارات عبر
 الدول التي قطعناها فهي متعة للزائر كأنها رقعة خضراء
 تتصل مع بعضها دون انقطاع اللهم إلا الأنهر العظيمة
 التي تخرقها كالدانوب) قال سعيد (إن توكنا على الله
 ومن يوم غدٍ تبدأ رحلة العودة يا باسم) .

وصلا طرابلس الغرب وافترقا على أمل اللقاء
 عندها استقل باسم الحافلة الكبيرة وركب سعيد الطائرة
 الداخلية.. قضى الأمر ووصل سعيد باب بيته وأضاء
 المصابيح وبقائق ثم قُرِعَ الباب وكان ذلك هو جاره خالد
 الكنعاني.. فتح سعيد الباب فوجده قبالة فقال له: (أهلاً يا

جار تفضل.. تفضل..) واستزاد في الترحيب، كان رد خالد: (أشكر لك هناك أمراً لا بد من إطلاعك عليه)، قال سعيد: (ما هو يا جار)، أجابه: (زوجتك في بيتي بصحبة عمها وزوجته أردت إخبارك حتى تستعد وهم بزيارتي منذ أسبوعين وقد كثرت التساؤلات ولكنني خمنت أنك على سفرٍ بقضاء إجازتك خارجاً ولكن لا أعلم أين..).

صدم سعيد.. فما الذي يحصل في هذا الزمان.. تلعثم ولم يستطع الإجابة فهو لم يتزوج أصلاً، تذكر عندها تلك البرقية التي جاءته قبل المغادرة وصعق أكثر ثم قال: (إذاً هي عندهم منذ فترة.. أسف لهذا التأخير سأوافيك بعد قليل وأشكر لك لطفك عما صنعت وعلى حسن استضافتك لزوجتي العزيزة وأهلها الكرام؟! يا خالد). ذهب خالد وتبعه سعيد بعد أن أصلح من قيافته وشأنه وسرّح شعره وتناول زجاجة العطر من حقيبته ينثر منها على وجهه وثيابه ما يليق بهذا المقام المحرج.

ثم خطا خطوتين وتوقف وأعاد الكرة ثانية وثالثة

ورابعة وراووته أفكار الشياطين أن يطلع مبتعداً من هذا المكان وينسحب بعيداً عند أحد الأصنقاء أو الفنادق ولكن المسافة ليست بعيدة عن الشقتين فهي في تلك العمارة المقابلة ثم قال: (واحدة بواحدة إن جاءت هي أذهب أنا)، ودخل في تلك الدوامة واجتاحته الصراعات حتى سمع من شرفة شقة جاره خالد صوتاً يناديه.. : (أسرع يا سيد سعيد فالأسرة بانتظارك)، عندها دخل سعيد المصيدة ولا بد من أن يتعرف على زوجته وأهلها قبل زواجه بها.. فتح خالد الباب مستقبلاً جاره العريس بالترحاب والعروس في الصدارة داخل الصالون.. ابتمت وتابع سعيد دخوله مسلماً على الحضور واحداً بعد الآخر.

قضى العروسان تلك الليلة في حوار عقيم وقد أفرغت جعبتها بالكامل حين قالت: (أُكْرِهْتُ على المجيء والزواج بك والسفر إليك)، قال: (ما الذي أكرهك يا حلوتي؟)، قالت له: (سطوة الأب وعناد الأم وارتباطي بغيرك وظروفي الصحية النسائية..) ثم عقت... (افعل ما تراه مناسباً)، أفنعتة بحديثها وأقنعها بجهله بها

واستغرابه من تلك المصادفات الغريبة في هذا الزمان
الأغرب وقال: (كنا نسمع عن الزواج بالإكراه قديماً جداً
أما اليوم فما نحن نعشيه واقعاً مجسداً في شخصك
الكريم. لكن حدثيني لِمَ والدك رتبَ لهذا الزواج ووضعني
وإياك في هذا المأزق؟).

قاطعتَه: (أبي كان في ضائقة مالية وشقيقتك وعمي
في غنى فاحش والدي يطمع بالثروة والمال وأنا في
أزمة غريبة أحتاج لإجراء عملية تنظيمياً للعادة الشهرية
وكل هذه الأمور مجتمعة وزيادة فهو يقدم عروساً لك
منفضلاً منكراً عليك وعلى أهلك وهذا هو الواقع). قال
سعيد: (ما الذي أسمع)، قالت عروسه الذي لا يعرف
اسمها حتى الآن: (إنها الحقيقة)، فأجابها سعيد: (إذاً هو
الزواج بالإكراه والتفضل أيضاً)، قالت العروس: (وَحَلُّ
المشاكل... فلا تغضب وإن شئتَ أعودُ، لكن توقع نهايتي
عند رحيلي.. والأمر بين يديك — وتابعت — واسمي
نهاية) قال سعيد: (وتلك هي أيضاً نهايتي يا نهاية..).

مُصَادَفَةٌ عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ

امتطى إحدى الحافلات الصغيرة التي تمر كل دقيقة تقريباً من أمام موقف غير مُعَدٍّ للوقوف من ظاهرٍ بمشقٍّ ومن إحدى ضواحيها الغربية القريبة جداً إليها قاصداً قلب المدينة التي تعج بالحيوية والحركة والنشاط... فتعجباً بسيدةٍ قبالتها تتوسط إحدى المقاعدِ الأمامية حيث لا يوجد غيرها في الحافلة فجلس قبالتها وهكذا كان يجلس دائماً قريباً من السائق لكي يدفع له من دون أن يُكَلِّفَ غيره بدفع الأجرة عنه وتلك عادة كان لا يستسيغها من كثير من الموجودين في أي حافلة يكون فيها حيث يجلس الصغيرُ في الخلف دافعاً للمُسَنِّ المتكلم في العمر بكل فظاظَةٍ ورقَّة الخمسمائة ليرة ليعطيها للسائق مترفعاً عن أن يفعل ذلك بنفسه... جاعلاً لشخصه عظمةً وأبهةً فارغين وشكلاً وضيعاً من أشكال التباهي والتتبع المقيت المزري في حافلةٍ يمكن لأي راكب كان أن يحتاط قبل الصعود إليها بتهيئة المبلغ الزهيد في يده سلفاً ليضعه بعد

ذاك في يد السائق حال امتطاء السيارة.. وهذه كانت عادة
 خالد في كل رحلة قريبة أو بعيدة من دمشق لظاهاها أو
 من ضواحيها إليها أو في داخلها ... وهكذا جلس خالد في
 مقعده وأخرج ورقة الخمس ليرات من محفظته التي كانت
 في يده ليدفعها للسائق، إذ ذاك ناولته تلك السيدة التي
 قبالتها ما بيدها لينقدها للسائق كذلك بدوره، ففعل... ولكنه
 كمن يحدث نفسه في سره إذ قال: (أنا لا أنكر أنني
 استأنست بوجودها وشعرت برهبة تعتريني وهيبة تتماكني
 وخففة في قلبي غريبة جداً تتسارع متواثبة في صدري
 فماذا ألم بي...؟! وما الذي أرهمني؟!.. وكيف طواني ذلك
 الشعور؟! في غفلة مني). رغم أن شريط تسجيل جهاز
 مذياع سيارة السائق يتعالى متواصلاً بالهدير مغالياً في
 النفير زاعقاً من غير احترام للحضور بضج كجوقة
 ترعق في مأتم أو فرقة غريبة تنفخ في مزامير
 الشيطان... إنها جلبية وكأنها حلبة للسباق من كل سيارة
 يعتليها سائق ليظهر ما لديه من قدرة على اختيار تلك
 الأغاني الهابطة المسفة في السداجة الرخيصة الكلمات
 عجيبة للحن الصاخب العاصفة بالنو، غير الآبهة

باحترام الحضور وانسجام الجمهور وقد تداعت أفكاره،
 واستمرَّ يحدث نفسه: لا شك أنها فرصة للمنافسة
 والصراع... حقاً إنه صراعٌ أخذَ بمناحي عديدة فهو
 وحشٌ مفترسٌ أكل عقول أولئك المتباهين في مجال
 التنافس في طريق ضاق أحياناً أو كاد لا يتسع سوى
 لسيارة للمرور فيه إذا ما تجاوز سائق آخر هذا الدرب أو
 ثالث أحياناً متبخرأً بركابه مسرعاً لا يرعوي... هذا
 والغرور والتباهي يتجاوزان حدَّ الاستهتار بأرواح
 المتأرجحين فوق جنون السرعة والمستهترين بالأنفس
 والأرواح والطريق يتلوى متعرجاً في مساره أحسبه
 خمسين ثعباناً اتصلوا معاً في توافقات منسجمة في شكل
 التعاريج والمنحنيات وفي هذا الدربِ الملتوي باستمرارٍ
 متعاقبة لا تفسح للمشاة حرية الخطى ودوام الاستقرارِ
 بالمسير فيندفع كل سائق سيارةٍ بركابه هادراً بوحشية
 مسعورٍ أقصى ما يستطيع فيما لا يفسح مجالاً لذلك
 فيتأرجح الركاب يمناً ويسرةً بتناغم وتناسق مع تأرجح
 كل سيارةٍ في زحمة الانطلاق بصعوبة المرور والخطرُ
 يدهمُ الجميع ولا يكاد يستقر ركبٌ مكانه حتى ينزلق

نحوه جَارُهُ وتبدأ الكرة عكس ما كان ما بين الجميع ولكن
 الأتكي من ذلك أن السائق لا يترك فرصة فيها مجالاً لكبح
 جماح سيارته إلا ويفعلها حيال كل خطر داهم فينقذف من
 في الخلف باندفاعٍ عن غير قصد نحو المتقدمين في شر
 ارتطامٍ وأنكر أنني ما ركبت مرةً سيارةً من تلك الحافلات
 إلا وشعرت أن معدتي ستقذف من جوفي أو سينخلع
 ظهري وصدري لكثرة ما أعاني وجميع الركاب المساكين
 في هذا المأتم الجنائزي من هؤلاء وأولئك أمثال الشباب
 الصغار من السائقين حتى نترجل ثم نصعدُ أخرى وتبدأ
 الحكاية ثانيةً وثالثةً كل يوم... فالصراع في هذا المجال
 والمضمار بلغ أشده والمنافسة لا تنهال في أي منها زد
 على ذلك أشرطة الكاسيت التي أصبحت تُجذّر فينا العنف
 والسطحية والصخب والضوضاء وعدم الانسجام والسباق
 يحكمنا من ناحية أخرى لشروطه المفرطة في الاستهتار
 بالأرواح والحيوات والأشخاص.

ولعل الخطورة تبلغ مداها الأبعد عند السائق وقتما
 لا يجد ما يعيده للبعض من دَرَاهِمٍ يدفعها لمن نقدوه
 أوراقاً مالية كبيرة إذ يضطر لعرضها على زميل آخر من

مهنته علّة يجد لديه ما يخرج من محنته التي وقع فيها
فيتجاذبان أطراف الحديث والحافلات في صراعها
متجاوزة كذلك كل الأعراف القيادية والأخلاق المرعية
في أساليب السياقة والقيادة.

هكذا نحن كل يوم بل كل ساعة أو بعض الساعة
في صراع مع الموت والحياة وكثيراً ما تعالى من البعض
صوت أو دعاء أو نداء... على مهلك يا أخي أو... يا
ساتر... يا الله... رفقا بالقوارير.... يا أخي طول بالك...
ارحمنا من هذا الضجيج والجنون.. خفف السرعة... على
إيش العجلة؟.

وهذا الذي يمكن أن يقال ربما يكون نادراً إذا ندد
عن البعض في لحظة خوف فالسائق يحسب نفسه أميناً
على الأرواح والأنفس ويجوز له أن يحشر ركبانه في
(خانة اليك كما يقولون) أو أن يلتمهم لسعير الجنون أو أن
يصرعهم في حادث أليم... أليس هو السائق المتصرف
بأمور الأرواح والراعي الأمين؟ أليس من حقه أن يخرس
الأسن؟. ويكم الأفواه وكثيراً ما سخر من بعض الركاب

إذا تفوه أحدهم بتبتيه أو تلميح أو تنكير . فيجيبهم (أنت ما
 دخلك... تع سوق مكاني يا فهم...) أو (شو فهمك بالقيادة
 يا حضرة) وربما أوقف الحافلة غاضباً نكاية بمن تكلم
 وكأنه يقول (أنا ريكم الأعلى) فيتدخل البعض لمعاودة
 قيادته مستلطفاً إياه مجاملاً فينتفخ ذلك السائق مستعلياً
 متباهياً مغروراً هائماً بأوهام العنجهية مفتوناً بجنونه
 الأرعن وقيادته الهمجية مما يتيح له بعد ذلك من صمت
 الحضور... الاستزادة في الغرور وهكذا يتحكم هذا
 المعتوه بالأرواح والأنواق والحريات صليفاً قميئاً بما يفعله
 ويتصرف به... حين أسرف وغالى... وعلام نبقي
 صامتين في نفق السائق المظلم... المليء بالرعب
 والخوف وامتهان الإحساس والأجناس والناس...؟).

قال خالد ذلك فسمعته السيدة التي قبالتة وهو يتمتم
 بصوت خفيض مما عاناه وجميع الركاب في الحافلة
 آنذاك.

فردت عليه بصوتها الرخيم المفاجئ وبلهجة السيدة
 المترفة المتقفة... (طب نفساً.. وهون عليك حقاً كلنا

نعاني من هذا الذي نقوله وتلمسه وتلحظه واقعاً ملموساً
وتصرفاً مجوجاً...) وقد مدت يدها لتغلق النافذة فأسرع
خالد وقام بالمهمة فتلامست الأيدي والنفت النظرات
للحظات حرجة أزمّت المشاعر وحفّزت الأحاسيس وكأنها
تحدثه عن أشياء هي في حسابه طويّت منذ زمن بعيد
ورغم أنه يكبرها بالسن ويعيش لظروفه الحياتية
والتزاماته ومسؤولياته وارتباطه بعمله بالخارج إلا أنها
لاحقته بسؤالها... (هل تعمل...)، أجابها: (نعم) واكتفى
بذلك منهياً الحديث فلاحقته بسؤال آخر: (وما نوع العمل
يا ترى...) تلمل لحظة ثم اضطر للإجابة: (أنا
مدرس...) ثم قالت: (وفي أي مدرسة هنا؟) قال متابعاً:
(أنا لا أدرس هنا الآن أنا أعيش الاغتراب وما هي إلا
إجازة أقضيها في أرض الوطن حتى يحين موعد العودة
والسفر إن شاء الله).

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد عندما صارحته
بتنمرها وقلقها من تلك التصرفات التي لاحظتها وشق
عليها أن تعيش هذه الإرهاصات الاجتماعية كل يوم مثله
من تلك الأنغام التي تصدع الرأس في كل سيارة وحافلة

وتلك السرعة الجنونية وذلك العبث الصباني وتلك
التصرفات التي يعانيتها كل راكب من البعض أثناء سير
الحافلة... وهنا عقب منوهاً عن الأدهى في كل ما يثير
الحفيظة حول التلوث البيئي الذي يجتاح السعادة ويتلف
الصحة وقد نفثت الحافلة التي تتقدمهم بهيئاتها الأسود
وبخانها القاتل فكانت الصدمة... وامتألت السيارة بما
نفثته من دخان تلك السيارة الأخرى ورغم ذلك علّت
الابتسامة على بعض الشفاه إذ قالت السيدة: (شرُّ المصيبة
ما يضحك^{١٢}) وهنا سألتها عن اسمها فأجابته أن اسمها
رانيا قال لها: (جميل هذا الاسم ويسعدني أنني التقيت بك
يا سيدتي في هذه الدقائق اللطيفة).

عقبت رانيا على ما قال بصوت الأنثى الجذابة
الهائلة المترنة وقد نفذت كلماتها لأحشائه قبل مسامعه:
(وهل من لقاء يا خالد^{١٣}).

بادءها بجوابه حين أسعفته الكلمات التي أحب أن
يذكرها فقال: (لا بأس في ذلك يا سيدتي... ولكن هل
سيتمنى لي أن أفعل مثل هذا رغم كل الظروف وقد جئنا
هذا الدخان الضبابي مكتسحاً كل مكان... فالجو قاتم
ملوثٌ ممّثٌ في كل اتجاه...

ألا تري معي صدق ما أقول؟! أمل أن تتحقق
أمانينا مستقبلاً بعد أن تنقشع الرؤيا الضبابية في جو تشبع
بدخان عوالم السيارات فإلى ذلك اليوم أمل للقاء وأظن
أننا سننتظر حتى ذلك الحين لقاءنا يا عزيزتي).

المحطة الأخيرة

اختلطت الأوراق ولم يعد بالإمكان الفصل فيما
بينها وقد وصل القطار المحطة الأخيرة في رحلته معلناً
بصفارتِه الجريئة جداً التي تنوي وتوقظ النيام من غفلتهم
والشاردين من شرودهم وهروبهم أن الوقت قد
حان.. فماذا بعد؟! وعلى الجميع التّرجل ليبدأ رحلة جديدة
مع ركابٍ سيصعدون إليه قافلاً نحو العودة إلى محطته
الأولى معيداً كل مراحلِه واحدة واحدة في نظام دقيق
ثابت لا يتغير ولا يتبدل وتلك هي سنة الحياة عندما تغلق
أبوابها لتبتلع في جوفها من رحل وتهل لمن جاء
أيقظه الحنين لأمه وقد ماتت منذ عشرين سنة.. صبحا في
منتصف الليل وهو يحسب نفسه في السادسة صباحاً..
أيقظه صوتها الآتي من بعيد وكأنها خيالاتٌ تلوح أمام
وجهه أو صورة غير واضحة للمعالم تتجسد في أحلامه
وها هي تزوره لأكثر من ليلةٍ تشير إليه بشيء وتنبهه
إلى أمرٍ لكن رافع لا يعي من ذلك مغزى ولم يفطن أو

حتى يدرك فحوى الأمر الذي لابد له أن يصل إلى معرفته مستوضحاً بأسئلة يطرحها على نفسه: (يا ترى ماذا تريد أُمي من ظهورها في أحلامي هذه الأيام خاصة؟.. وأي شيء ذلك الذي تنبّه إليه؟.. وقد مرت سنواتٌ حتى الآن وأنا غارق في قعر الهموم والمشاكل والتقلُّع هنا وهناك وكثرة الأسفار في قارات العالم مجتازاً المحيطات والبحار واليابسة... لكنها لم تزرني ونادراً ما استقبلت طيفها أو لاح لخطري في زحمة الحياة المعقّدة التي تأخذنا بعيداً ضمن مشاكلها وهمومها ولا تترك فرصة حتى لمجرد التفكير بأقل الأمور أهمية أحياناً كالعلاقات الاجتماعية وترتيب الأوراق أو لزيارة صديق عزيز...) فنادرًا ما لمح رافع زملاءه وأصدقاءه في طريق إلا وسلم ثم ودع مستأنزاً بالانصراف لما يشغله من مسؤولياتٍ وتبعاتٍ لا يستطيع معها الانسحاب منها حتى يترك لنفسه فرصة في نزهةٍ أو حديثٍ مع صديق أو حتى الاهتمام بنفسه وثيابه فالحياة أصبحت معقّدةٍ لحدّ الجنون، قاسيةٍ لحدّ الموت، مُرعِيةٍ لحدّ الهول، عاصفةٍ لحدّ الفوضى، وكلُّ يتزاحم في عراك

وصراع متلازمين ولا تكون الغلبة لأحد من الأطراف
إلا للفقر والموت فهما وحدهما المسيطران في هذا
الزحام دائماً وجميع الفرقاء إلى الجحيم... وكأن أمه
تنبهه وتحذره إلى ما يتصور كانت نظرة رافع سوداوية
بعض الشيء وذلك مردهُ لفقد أمه بعد أبيه بسنةٍ ونصفٍ
عاش معها في إطار أسرة كبيرة من الأخوة والأخوات
وهو المثلُّ بين الجميع صاحب الحظوة في كل الأحوال
وكم ألمه فقد أبيه أبي محمود بعد مرض أنهك قواه إذ
استمر عدة سنوات يغالب فيها الآلام ويعاني وطأتها ليل
نهار فما أشدها على العائلة جميعاً لأن كل واحد كان
يتحمل عبئاً وجزءاً من تلك المسؤولية حتى غادر الحياة
وفارقها بالكثير من الصبر فهذا وعد الله: (إن الله مع
الصابرين إذا صبروا) صدق الله العظيم، ولم يكن أباً
محمود لينتمر أو يشتكي وهو المؤمن للنقي الورع
الصابر المكابر على آلامه وهمومه إلا أن يقول: (الحمد
الله وبشر الصابرين)، لقد عانى الأمرين لقلة ذات اليد
وضيق الحال ثم المرض الذي ذهب بنور عينيه أولاً وقد
تفاقم حتى اعتلَّ جسمه وساعت حاله فتوفاه الله في

صبيحة يوم كريم من شهر رمضان.

ترك هذا المصابُ الجلُّ في نفس رافع أثراً عميقاً
من الحزن ظل يعاني منه طوال حياته وكيف لا وهو
الابن القريب لوالده وقد تزوج معظم أخوته وأخواته وكان
لصيقاً به قريباً من أحاديثه الشقيقة ونصائحه الهامة
وحكمته في الحياة والصبر عليها فهي التجارب التي
تغرس في النفس آثارها بأصابع الزمن والتي لا تُمحى
أبداً... توفي أبو محمود ولا زال رافع يتذكر والده بكل
تفاصيل حياته وهو طالب في كلية الحقوق بالسنة
الثالثة..حتى اختطف الموت والدته الأثيرة إلى نفسه
الغالية عليه الحنون المعطاء الكريمة العطوف.

وفيها صدره الحنون الذي يضمه عندما يضيق به
المكان فهي الملجأ والملاذ الآمنين في كل الأحوال...
أحبها رافع حباً غريباً وازداد هذا الحب بعد والده
المرحوم فكانت أمه بما بقي لديها هي التي تعوضه هذا
الحب الأبوي إضافة إلى حب الأم وشوقها وتعلقها
وحنانها عليه فهو في نظرها شعلة الضوء والحياة التي

تراها بعد فقد زوجها الغالي شريك حياتها ورفيق دربها
 فما كان لهذا الأثر الأكبر في معاناتها القاسية بحرقه
 المفجوع بعزيز عليها وهي (عشرة عمر) ورحلة حياة
 عاشاها معاً لتتسبب زوجها وأيامه الخطوة الهنيئة
 مطلقاً... تفاقمت الأيام بطيئة على رافع بعد أن شعر أن
 أمه تزداد حالتها سوءاً وقد اصطحبها للعديد من الأطباء
 متنقلاً بين كثير من المخابر الطبية التحليلية والمستشفيات
 ولكنها لا تشكو من شيء اللهم تلك المسحة من الحزن
 التي تظلل وجهها وتطل من عينيها وذلك الشيء الخفي
 الذي ينساب بحديثها عندما تتكلم. عانى من كل ذلك
 الأسى الخفي مؤملاً شفاءها لكنه أحس في قرارة نفسه
 بشيء لا يوصف من الرهبة والخوف الكبيرين وهو
 يتصور شبح الموت بقدومه نحو أمه لاسمح الله عما
 قريب.. فما الذي سيحل به وماذا سيكون من أمره
 وحاله... إنها نهاية العالم بالنسبة إليه... فما أشدها مرارة
 وأصعبها رحلة وأقساها حزناً، ثم بدأت الأسئلة الثانية
 تراوده ثانية (وهل سترحل أمي هي الأخرى؟!... وقد
 أصبحت وحيداً بين جدران هذا البيت لا غير الوحدة فيه

والصدي الذي سيكون رفيقي في آلامي بعد اليوم فالجميع رحلوا.... فمنهم المتزوج والمسافر والمغادر والراحل.... وأنا... ماذا أفعل... ثم ماذا بعد... استكرر رافع بأسئلته تلك كل ما مرَّ بخياله في هذه اللحظات وتواردت أسئلة أخرى غيرها ترحم رأسه فماذا يفعل وقد شعر بدنوّ الكارثة وهول المصيبة حتى أن توفيت أمه في آخر ليل الجمعة قبل طلوع فجر السبت في الثاني من أيلول مودعة الجميع كَرِحَةٍ كل من سبقوها... لكن همها الوحيد قبل ذلك وهي بين ظهراني هذه الدنيا هو ابنها الذي ما تخلّت عنه لحظة وقد شفّ حبها له وآلمها أن تراه شاردًا يائسًا يتجرع من مرارة حسرة والده ما سيزيده أسيّ مضاعفًا إن غادرته مودعة بعد أن يحين الفراق وليس من عناقٍ لهذا المشهد إن أذنت ساعته وقد حانت تلك اللحظات وحال بينهما الموت وأصبح كل في طريق ما بين الدنيا والآخرة...

تقدم رافع بطلبات كثيرة للتعاقد مع إحدى الدول العربية للعمل فيها عله يتجاوز محنته ويتخطى همومه ولا شك أن الإجراءات تأخذ وقتاً طويلاً ريثما يجد نتيجة

أو موافقة أو خطاباً أو إشعاراً من جهة في تلك الأيام فقطع بأمره وتوجه إلى شعبة تجنيده ليلتحق بالجيش مليباً خدمة العلم مرجئاً إكمال مواصلة دراسته الجامعية إلى ما بعد انقضاء فترة الخدمة الإلزامية فلم يجد من تلك الجهة إلا أن أجابته بعدم توفر دورات حالياً لأمثاله ليلتحق بها وقد وضع نفسه تحت الخدمة... فلم يجد طريقاً لهذا فصدم أكثر وتعقدت أموره الحياتية بسرعة مما دفع زوج أخته الكبرى عدنان أن يطلب منه القدوم إليه ليصطحبه معه كل يوم في سفراته الداخلية للمحافظات والأرياف في سيارته لطبيعة عمله حتى يخفف عنه مشقة التفكير وشروء الذهن فيمن تولاهم الله برحمته واختارهم لجواره... فاستجاب رافع لعدنان زوج شقيقته بعد رفض وأخذ ورد وكانت قد عافت نفسه الطعام والحياة وزهد في كل شيء مما أضعف صحته وهزل جسمه وتغير حاله وامتقع وجهه حتى بدأ يسترد عافيته بجولاته الجديدة اليومية ناسياً أو متناسياً قليلاً أحزانه إلى أن جاءته رسالة من إحدى البعثات للتعاقد معها ففعل مستغلاً هذا الظرف عله يخرج من عزلته ويضعه على الضفة الأخرى من

النهر بعد عراك وصراع في موجه المتلاطم من الهموم والأحداث والآلام.... توجه للعمل إلى شمال إفريقيا مدرساً وقد سعى لنقل أوراقه الجامعية ليكمل دراسته في جامعة الإسكندرية للحصول على إجازة شهادة القانون (الحقوق) فيما بعد، ومضت أيام قليلة استطاع أن ينجز خلالها كل ما توجب عليه عمله إلى وضع رجله على سلم الطائرة متوكلاً على الله وقد حدث نفسه مراراً... (الآن وقد أصبحت وحيداً بعد فقد الأبوين فما الفرق بين أن أبقى أعاني الوحدة في منزلي وبين أن أكون وحيداً في عالم آخر بقصد العمل ولا شك أن الأمر سيان والوحدة في الحالتين واردة وهي الوحدة لا تغيير لكنني سأكسب للمال وأجد المعارف وأشاهد العالم وأتأسى وحشتي وأحزاني وربما أنظر إلى الأمور من زاوية غير زاوية اليأس فلم لا يكون الزواج والاستقرار؟) عندها عقد العزم ويَمَّ شطره آملاً الخير والسلامة والتوفيق فيما عزم عليه إلى أن وصل إلى مقعده في الطائرة وجلس مسترخياً ينظر إلى عالمه الحبيب ومدينته دمشق الفجاء التي عشقها وأحبها مثل أمه وأبيه... من نافذة الطائرة وهي

تقلع مرتفعة في الجو . عندها حدث نفسه، وقد حان وقت
الفراق فقد ودع الجميع وبدأت رحلته مع المجهول نحو
الأبعد مستعرضاً شريط أيامه منهيّاً شوطاً من حياته ليبدأ
شوطاً آخر منذ الساعة... نرف من عينيهِ قطرات من
الدمع سَحَّتْ على خَنِيهِ بِصِمَتٍ وهو لا يدري هل فراق
للأحزان وبداية لرؤيا ربما تكون سعيدة.. أم أنها استمرار
متواصل سينقله بعثه في هذا المجهول الذي يرتحل إليه
دون نكوص بعد أن حزم أمره وحزم فيما يفعل.

وبدا الصراع يتخطفه والهواجس تتنابه حتى حطت
الطائرة على أرض المطار حين شاهد بعد هبوطه منها
مع الركاب الجو المكفهر والغبار المتصاعد والأتربة التي
تجلل كل مكان وعدم الرؤيا والوضوح. تعثر في مشيته
متثاقلاً فقد بدت له الظروف الجديدة بوجهها المرعب منذ
البداية على غير ما توقع... أين جمال المكان؟ وطراوة
الهواء ورائحة الياسمين وهو يجال كل جدران أحياء
دمشق وأين المتسلقات التي تشبث بالعمارات مرتفعة حتى
آخر طابق منها وأين الحركة الدؤوب التي لا تنتهي وأين
المدينة الصاخبة بجيوشها وزخمها وأهلها؟ ثم أحيائه. بدأ

رافع يشعر بالوحدة الجديدة والتغيير لكنه شد من عزيمة
 نفسه وثبت أقدامه مواسياً نفسه مطمئناً روحه المنبهاره
 بالأفضل... وقال: (ما هي إلا زوبعة عابرة ستنتهي عما
 قريب) إلى أن وصل لقاعة اصطحاب الحقائق فتناول
 أمتعته وصعد إلى الحافلة الكبيرة التي تتسع لأعداد فوق
 المائة جلوساً ووقوفاً، ولم يجد فيها غير التراب يُعْفَرُ كل
 أرجائها محتلاً كل أمكنة الركاب الذين سيصعدون.. هكذا
 بنت حال الأمور الأولى له منذ لحظات الفراق وما هي
 تسير على مهلٍ متناقلة تخرق ما سيجدُ من حياته بلا
 تفاؤل... لكن الرحلة بدأت والعودة غير ممكنة حالياً
 وعليه أن يوطن العزيمة ويتحمل المجهول ويستعد
 لمجريات الأحداث كما تكون فقد عركها وخبر منها
 مصاعبها فلا أقل من أن يتجمل بالصبر ويتحلى
 بالإرادة... إنها الحياة والإنسان هو الوحيد الذي عليه
 الصمود فيها لأن الله قد أودع في بني البشر كل المقومات
 التي تجعلهم أهلاً لها ولولا ذلك لما تميز الإنسان عن
 السائمة بالعقل والحكمة وحسن التدبير والتخطيط وتعمير
 الدنيا بكل نافع مفيد. كانت هذه الموازنات تجول في خلد

رافع وتفكيره حتى استقر على رأي مفاده هو أن الإنسان وهو القوى من بين كل المخلوقات الكونية مهما كبرت وعظمت فهو الأقوى بفعله وحسن تدبيره وقد ذلّلها له الله جميعاً من حيوان وزرع ورياح وجماد واستطاع الإنسان أن يخضعها لإرادته ويستفيد منها لبقائه واستمرارية حياته فيما بعد....

إنها الصراعات تجتاح النفس في كل المجالات والخطوات والأمر حتى نزل بفندق بالمدينة واستقل بغرفة وذلك الفندق يعتبر فخماً فاستطلع غرفته وتأملها وقال: (هذه الغرفة لا تنفع إلا لتربية الدواجن أو لقطع من الماعز والأغنام تم عقب.. لكنها مفارقات قلما يجود الزمان بمثلها على غيره). وفي الصباح عرج على الجهات المسؤولة في التعليم وتبلغ باستلام عمله وتابع رحلته في اليوم التالي متأبطاً خطابه وحقائبه حتى وطئت قدماه أرض القرية التي توجه إليها وحطّ رحاله فيها والتي يسمونها (بطّة) وهي من أعمال سيدي سعيد التابعة لمنطقة المرج في الجبل الأخضر... كان ذلك يوم الجمعة وفي هذا اليوم يتقاطر كل مَنْ في القرى القريبة

والمجاورة إلى بطة لوجود بعض مواد التموين من خبز
وغذاء ولحم ومعلبات وسجائر وتعتبر مركزاً صغيراً
لكل القرى التي تحيط بها وهي محط أولئك المدرسين في
هذا اليوم تَبَضُّعاً ومنامة. ورافع مثل الجميع نزل ضيفاً
على من سبقه من الزملاء المتعاقدين إليها وكان سكناً
متواضعاً جداً وهو من الصفيح يتلاعب فيه الريح وفي
أرجائه ويعزف المطر فوق سطحه وتخترق أصوات
ثغاء الماعز والطيور والبقر جدران الطرية الموجودة في
زريبة بعيدة عن السكن جداً والمتجاوبة مع نفحات الريح
الشجية في معزوفات لا تنتهي كالأفلام السينمائية وفي
العروض المتواصلة.. والبرد والصقيع الصباحيان في
هذا الوقت من الشتاء من شهر كانون الأول كانا يدقان
العظام وينخرانها والأيدي ترتجف والجسم يرتعش لقلّة
الدفع إلا على حطب رطب قد عسعس بدخانته والمترمد
في كانونه ضعيف الاشتعال سيئ التدفئة مما حال بين
مجموع الأفراد من المدرسين وتنفسهم نافثاً فيهم سمومه
مصدعاً رؤوسهم والسعال المتقطع بنوبات متلاحقة على
مراحل في صدر كل فرد في المجموعة كأنها تناوبات

لعس القرية ودوريات العمال تتعاقب في كل منهم بعد الآخر. لكن رغم قساوة الجو وبساطة المكان فالنكتة والفكاهة تعلوان على كل تلك الكآبة ويتجمهر الحشد في دائرة متحلقاً حول الموقد وقد بدأ التعارف لتبديد الجفاء وتقريب الفجوة (فهم من كل قطر أغنية). تقاطروا من أقطار عربية كثيرة ليتجمعوا ويجتمعوا في هذه الرقعة من الأرض وهذا المكان قال المضيف للجميع: مقطّعاً صمت الجلسة هادماً جدار العزلة باعثاً الحركة في الحضور: (الداعي أبو سظام حسون التاجر) وبدا كل واحد يعرف عن نفسه وعن قريته التي عيّن فيها سواء كانت بعيدة أو قريبة حتى كان دور رافع فقال: (أنا رافع السعيد في بطة هذه) فسأل أبو سظام حسون التاجر: (وأنت يازميلنا الذي على اليمين)، فقال: (أنا سامر الأحمد وقريتي بالقرب من بطة يعني "في المرقعة ابتعتها") وكان هذا الزميل مصرياً يتحلى بروح النكتة والدعابة فضحك الجميع حتى تبدلت الكآبة وانزاح الغم وطوّيت سحابة ذلك اليوم في شبه انسجام ووثام، رغم الخوار والنشَاء والرياح والمطر والبرد والدخان

والعزلة.... فَجُنَّ الليل واستلقى كل واحد على سريره أو
مفرشه في زوايا المكان بعد طول حوار ومناقشات أخذت
ربع الليل على ضوء الشمع الخافت واحتساء أقذاح
الشاي من إريق لطحه الحطب المشتعل ببطءٍ في أكثر
من جهةٍ بسوادٍ بدا كالبقع فوق الثوب المهترئ الذي لم
ينل حظه من الاهتمام منذ زمن بعيد وقد غفى عليه
الدهر.. غفى الجميع إلا أبا سظام فقط، وكان هو الأخير
الذي ما زالت عيناه ترقب كل واحد منهم وهو يبتسم
محدثاً نفسه قائلاً: لقد مرت سحابة النهار وجزء من الليل
ولا زال في الجعبة الكثير، ثم تبعهم ووضع الملاءة
والبطانية فوق رأسه وغفى متوكلاً على الله... ومضى
من الوقت ربع ساعة تقريباً والجميع نيام فقد أرهقت
عيونهم سحابات الدخان وصدعت رؤوسهم ولا زالت
صدورهم في صراعها مع السعال تتنابهم بهجماتٍها
الملاحقة دون توقف وهم في غفلة غارقون. دبّت
الحركة في المكان معلنة بدء الجولة الثانية من الليل قبل
انبلاج الصبح وبدء العمل فالرماد يتطاير والأطباق
المستهلكة ترتطم بالجدران المعدنية والقدر يتحرك حتى

أصوات القطط تعلن عن بدء جولتها للمهمة القادمة. فهي
تموء عبر سكون الليل بأصوات متفاوتة متغايرة ما بين
الصغيرة والكبيرة وكذلك الأقداح تقرع بعضها.. بدأ
الحشد يستيقظ وكل فيما يرى مشغولاً بالنظر إليه والنوم
يغلب على الجميع وهم أنصاف نائمين وأنصاف
يقظين... وكان رافع أولهم... لكنه لم يشاهد أحداً يحرك
كل تلك الأشياء ولم يرَ قططاً أو حيوانات إلا ما يتبعثر
مجتهداً في الإقلاق وعدم الراحة... عجب رافع وعجب
الجميع وكل ينظر إلى زميله مستغرباً ما هذا الذي يحدث
وكيف لهذه الأمور والظواهر أن تحصل من تلقاء ذاتها
فعاجل رافع الجميع بدعابته حين قال: (لكأن جاذبية
الأرض دخلت سكننا وابتعدت عن مركزها في جبال
تركيا المغناطيسية لنتشاركنا فرحتنا بهذه المناسبة وهذا
الليل الساحر لذلك بدت هذه الظاهرة أمامكم بفعل الجاذبية
الآتية من أقصى الأرض).

قال سامر الأحمد: (لا بل إنها الخيالات التي نراها
في هذا الظلام الدامس الذي لا يسمح لضوء عود النقاب

الذي أشعلته أمامكم من الرؤية الواضحة، وقد شبعنا من دخان الموقد وعشت عيوننا وتشوشت عقولنا فصرنا نرى الأشياء على غير ما هي حتى آذاننا صممت من ضجيج فرقة الصفيح عبر الأصوات المتعاقبة من كل ما حولنا). قال عامر الصعيدي: (إني أخمن أن الحكاية أبعد من ذلك يا زملائي، فلا بد من وجود بعض السكان الذين يقطنون بعيداً عنا ويرغبون بممازحتنا أن يكونوا هم من يفعلون مثل هذه الحركات فناموا ولا تلقوا بالاً لمثل ذلك). لكن الضوضاء ازدادت وزاد معها تطاير كل شيء حتى أنهم ارتطموا ببعضهم البعض أكثر من مرة وكل يتدافع نحو الآخر فيما يثير فيهم الشك والتحمس للعراك إن تطور الأمر نحو الأسوأ فيما بعد. رفع أبسو سطم غطاء رأسه وأزاحه عنه بيديه بهدوء مفرط وهو الوحيد الذي نام متأخراً وها هو ذا يصحو متأخراً أيضاً دون الجميع قائلًا: (ألا زلتم حتى هذه الساعة "وكأنه لم يسمع ما جرى من حديث" غير مصدقين لما يجري وتتجاهلون الواقع؟؟. حقاً إنكم أقوى من العفاريت واشدها جرأة وثباتاً) قال رافع: (لكنني بك عفريت منهم

يا أبا سظام وهل تظننا ضعفاء حتى تُخَوِّفُنَا مثل هذه الأمور). قال عامر الصعيدي: (أظننا أقوى منها فالإنسان سيطر على كل هذه المعمورة وكثير ممن يُخْضِعُونَ الجن لسيطرتهم أليس سيدنا سليمان الحكيم كانت له الطاعة عليهم؟) ولكن أبا سظام قال مؤكداً: (إنها العفاريث من تعبت بحياتنا وتشاركنا هذا المكان القصي في خلأتنا المقفر فلا جيران ولا مَحَالَّةَ تجارية ولا بيوت.. فكيف لنا بمثل ما نقولون؟ والطريق موحلة مقطوعة بالسيل ولا تسمح لأي كان من الاقتراب من سكننا الهادئ الجميل هذا) ثم عقب ثانياً (على كل حال إن لم تصدقوا فانظروا من تلك النافذة المشرعة نحو الجنوب سترون ما يقنعكم حقاً يا إخوان) نظر رافع بعينه خارجاً واستطلع الأمر وتبعه الآخرون حتى يرى ما هو الذي يثير الدهشة وَيَقْوِضُ الراحة ويقلق البال.. فلمح رافع خارج السكن مجموعة كبيرة من الكلاب تقف كلها كصف عسكر تطلق زعيقها وضوضاءها عبر نباحها المتعالي إلا واحداً هو الأشد شراسة والأكبر حجماً وجسماً والأعمق لوناً.... كان أسود فاحماً ينظر نحوهم

بعينين محمرتين تقدحان شراراً وكأنه يقول للجميع ها نحن من فعل ذلك.... فما بالكم لا تتألمون؟ ازدادت الدهشة وعلا الوجوم وهدأت العاصفة وقد طلع النهار ورحل القطيع وبوت صافرة القطار القادم المقرب من آخر محطة له والتي هي في قريتهم تلك المشؤومة البعيدة..... عندها قال أبو سظام: (هذه آخر محطة لهذه الليلة وغداً لنا لقاء مع قطار العودة).

الفهرس

٥	الإهداء
٧	تيارات من زمن غابر
٢١	لا تفعل أرجوك
٣٥	الديك الرومي
٥٧	قطرات من ذاكرة الفكر
٦٥	الأمانة في السيرة العطرة
٧٧	نهاية المطاف
٩١	مصادفة على غير موعد
١٠١	المحطة الأخيرة
١١٩	الفهرس

من إصدارات المؤلف

المطبوعات:

شعر: الندامي — ١٩٨٦

فينوس — ١٩٩٦

الإخوان — ٢٠٠٠

الطيوف الوردية — ٢٠٠٠

المسرح: أهم الغزوات — ١٩٩٧

القصص: قطرات من ذاكرة الفكر — ٢٠٠٠

تحت الطبع:

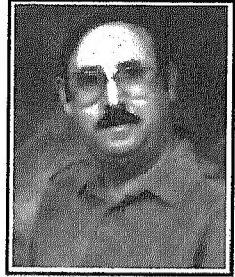
شعر: أعاصير

قطرات الندى

المسرح: ملحمة التاريخ

إضاءات

الرواية: أحلام الراحلين



لكنَّ الطفل الصغير الذي كان مستغرباً أشدَّ الاستغراب منفِعلاً أشدَّ
الإِنفعال ، مستهجنًا ذلك العمل الذي لا يُرى والفعل الذي لم يتحقق
صادقاً في أحاسيسه ومشاعره ، واثقاً من نفسه بأنه على طرف النقيض
من كل هؤلاء .

فما كان منه إلا أن صاح قائلاً : أنا لا أرى شيئاً سوى حركات لرجل أو همكُم
بما يفعل .. فعلام الدهشة والانبهار ٩٩ .

والعجب والابتسام والضحك ٩٩ .

لا شك أنكم بلهاء ٩٩ لا ترون غير الأوهام .. " وكان على رؤوسكم الطير "
فأسقط في يدي الحضور وشعروا بالخزي .